

عقريّة الامام

عباس محمود العقاد

طبعة جديدة منقحة



اسم الكتاب: عبقرية الإمام
المؤلف: عباس محمود العقاد
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر: الطبعة الثامنة - أكتوبر 2006م
رقم الإيداع: 2003 / 10053
التقديم الدولي: ISBN 977-14-2298-7

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434 (02) 3472864 (02) 3462576 فاكس: ص.ع: 21 إسماعيلية
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Pehleehing@nahdetmisr.com

المطابع: 89 المنطقة الصناعية للرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8334237 (02) - 8334239 - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع التفرعي: 18 ش كامل حدادى - الفيالة -
القاهرة - ص.ب: 96 الفيالة - القاهرة
ت: 5989627 (02) - 5989695 (02) - فاكس: 5983395 (02)

مركز خدمة العملاء الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 401 طريق السبعة (إرشيدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2239675 (056)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1956

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابى صريح من الناشر.

تقديم

فى كل ناحية من نواحي النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبى طالب رضوان الله عليه..

لأن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشرى من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل.

فى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة والإحساس المتطلع إلى الرحمة والإكبار.. لأنه الشهيد أبو الشهداء، يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحدا بعد واحد شيوخا جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذى لا يرحم، أوفتيانا عولجوا وهم فى نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة، بل يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء، وهم على حياض المذبة جياع ظماء.. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصيغة دمائهم، حتى قال شاعر فيلسوف كأبى العلاء لا يظن به التشيع، بل ظنت بإسلامه الظنون:

وعلى الأفق من دماء الشهيد بين على ونجله شامدان
فهما فى أواخر الليل فجرا ن، وفى أولياته شفقان

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلما تبلغها فى سير الشهداء غاية، وكثيرا ما تتعطش إليها سرائر الأمم فى قصص الفداء التى عمرت بها تواريخ الأديان..

وفى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية فى الأجواء أو تغوص فى الأغوار. فهو الشجاع الذى نزعته به الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل، واشترك فى تعظيمه شهود العيان وعشاق الأعاجيب.. ألم يحارب المردة فى فلواتها؟.. ألم يخلق له الرواة أندادا من

المناجزين والمبارزين لم يخلقهم الله؟.. ألم يستصغر عليه المحبون الغالون في الحب أن يصرع من عرفنا من خصومه فأنشئوا له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه؟.. ألم يوشك من وصفه ووصفوا ونعاته وفتكاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير وهو هو أصدق الأبطال في أصدق مجال.

وتلتقى سيرته . عليه رضوان الله . بالفكر كما تلتقى بالخيال والعاطفة؛ لأنه صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الإسلامية، ولأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور، ولأنه أوتي من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين، فهو الذكاء الذي تحسه في الفكرة والخاطرة قبل أن تحسه في نتيجة العمل ومجرى الأمور.

وللذوق الأدبي . أو الذوق الفني . ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة؛ لأنه رضوان الله عليه كان أديبا يليغا له نهج من الأدب والبلاغة يقتدى به المقتدون، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون، وإن تطاولت بينه وبينهم السنين. فهو الحكيم الأديب، والخطيب المبين، والمنشئ الذي يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات النادرين والناظمين..

والنفس الإنسانية نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخيل والتفكير، وتذوق الحسن الجميل من التعبير.

فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط في زمن من الأزمان، وهي ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان، أو ناحية الخصومة الناشئة أبدا على رأى من الآراء، أو حق من الحقوق، أو وطن من الأوطان.

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين، ولكن الذي لم يفتر قط ولا نخاله يفتر في حين من الأحيان خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين.

وإن ها هنا للمجال الرغيب والملتقى القريب في سيرة هذا الإمام الأوحد التي لا تشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخواص، وهو رضوان الله عليه قد قال في ذلك أوجز مقال حين قال:

«ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي».. أو حين قال: «يهلك في رجلان: محب مفرط بما ليس في ومبغض يحمله شأنى على أن يبهتنى».

وصدق الإمام الكريم في غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه، فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين؛ هنا الروافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه.. ويستتيبهم فيصرون على الكفر أى إصرار، ويأمر بإحراقهم فيقولون وهم يساقون إلى الحفيرة الموقدة: إنه الله وإنه هو الذى يعذب بالنار.. وهناك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة إلى الله عن عصيانه.. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السباب..

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسع في تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء: يقول أناس: إله. ويقول أناس: كافر مطرود من رحمة الله!..

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الإمام في أكثر من طريق: وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق إلى التجديد والإصلاح.. فقد أصبح اسم على علماً يلتف به كل مغصوب، وصيحة ينادى بها كل طالب إنصاف، وقامت باسمه الدول بعد موته؛ لأنه لم تقم له دولة في حياته. وجعل الغاضبون على كل مجتمع باغ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح، أو كأنها المنفس الذى يستروح إليه كل مظلوم.. فمن نازع في رأى، ففي اسم على شفاء لنوازع نفسه، ومن ثار على ضيم ففي اسم على حافز لثورته ومرضاة لغضبه، ومن واجه التاريخ العربى بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين على في وجه من وجوه، وعلى حالة من حالاته. وتلك هي المزية التى انفرد بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمة الخلفاء، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية إن قصر في خلفها التاريخ والمؤرخون.

وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب في حذر ما بعده من حذر؛ لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس، ولا ينقصها أو ينول بها إلى البساطة والوضوح، وكلما قلت هذه العوامل وانحصرت في ناحية من النواحي سهل الخلوص إلى مقطع الحق فيها. فالبطل الذي يلتقى بالفكر وحده أسهل من البطل الذي يلتقى بالفكر والعاطفة، وإن هذا لأسهل من الذي يلتقى بالفكر والعاطفة والخيال، وكل أولئك أسهل ممن يلتقى في ألف سنة متوالية بدخائل النفوس جميعا من طموح إلى المثل الأعلى، أو حرص على الملاحاة، أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى، مزيدا على التخيل والشعور والتفكير.

لهذا نعلم غير مترددين في علمنا أن واجبنا في «عبقريّة الإمام» مرسوم للغاية والطريق، وهو واجب التبسيط والقصد إلى الخطّة الوسطى، وفي علمنا بهذا بعض التيسير، وإن لم يكن فيه كل التيسير، نرجع «بعبقريّة الإمام» إلى الحقيقة الوسطى.

نرجع من عشرين طريقا إلى بداية واحدة؛ لأن الطريق الواحدة لا تؤدي إليها أقرب أداء. وحسبنا أننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق إلى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله.

عباس محمود العقاد



صفاته

المشهور عن علي كرم الله وجهه أنه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين.. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها ولامحها في كثير من أعلامها المقدمين، وهي في جملتها النبل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام.

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

وقيل: إن اسمه الذي اختارته له أمه: حيدرة باسم أبيها أسد، والحيدرة هو الأسد.. ثم غيره أبوه قسماً عليها وبه عرف واشتهر بعد ذلك..

وكان علي أصغر أبناء أبيه، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين.

قيل: إن عقيلاً كان أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه، فلما أصاب القحط قريشاً وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفروه أمرهم، فقال: دعوا عقيلاً وخذوا من شئتم. فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفرأ وأخذ النبي عليه السلام علياً كما هو مشهور. فعوضه إيثار النبي بالحب عن إيثار أبيه، ولكنه عرف هذا الإيثار في طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر في نفسه علي ما يبدو من أطوار حياته التالية، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد فتعود ألا يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج في صباه..

وربما صح من أوصاف علي في طفولته أنه كان طفلاً مبكر النماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة؛ لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدق فهمها والتنبه لها علي من كان في مثل هذه السن

المبكرة. فكانت له مزايا التبكير في النماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكرين، ولا سيما المولودين منهم في شيخوخة الآباء..

ونشأ رضى الله عنه رجلاً مكين البنيان في الشباب والكهولة، حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز الستين..

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة: إنه كان رضى الله عنه ربيعة أميل إلى القصر، آدم - أى أسمر - شديد الأدمة، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها، ثقیل العينين في دعج وسعة، حسن الوجه واضح البشاشة، أغيد كأنما عنقه إبريق فضة، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش^(١) السبع الضاري لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجاً. وكان أبجر - أى كبير البطن - يميل إلى السمنة في غير إفراط، ضخمة عضلة الساق دقيق مستدقها، ضخمة عضلة الذراع دقيق مستدقها، شثن الكفين، يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبی، ويقدم في الحرب فيقدم مهرولاً لا يلوى على شئ..

وتدل أخباره - كما تدل صفاته - على قوة جسمية بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلا صرعه، ولم يبارز أحداً إلا قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلا رجال، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشداء، ويصيح الصيحة فتنتزع لها قلوب الشجعان.

ومن مكانة تركيبه رضى الله عنه أنه كان لا يبالي بالحر والبرد، ولا يحفل بالطوارئ الجوية في صيف ولا شتاء، فكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء وثياب الشتاء في الصيف، وسئل في ذلك فقال: «إن رسول الله ﷺ بعث إلي وأنا أرمد العين يوم خيبر، فقلت: يا رسول الله: إني أرمد العين. فقال: اللهم أذهب عنه الحر والبرد، فما وجدت حراً ولا برداً منذ يومئذ...».

* * *

(١) المشاش: رأس العظم.

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغاً ما بلغت بهما القساوة والإيذاء. فقد كان يرعد للبرد إذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه. قال هرون بن عنترة عن أبيه: دخلت على علي بالخوارج وهو في فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا بنفسك؟.. فقال: والله ما أرزؤكم شيئاً، وما هي إلا قطيقتي التي أخرجتها من المدينة.

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء، إنما هي مناعة قوية خصت بها بنيته، لم يخصص بها معظم الناس.

وكان إلى قوته البالغة، شجاعاً لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة، فكان لجراته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت، واجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعا في الحديد ينادي جيش المسلمين: من يبارز.. فصاح علي: أنا له يا نبي الله.. قال النبي وبه إشفاق عليه: إنه عمرو. اجلس. ثم عاد عمرو ينادي: ألا رجل يبرز؟.. وجعل يؤنبهم قائلاً: أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم؟.. أفلا تبرزون إلى رجلاً؟.. فقام على مرة بعد مرة وهو يقول: أنا له يا رسول الله، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة: اجلس. إنه عمرو. وهو يجيبه: وإن كان عمراً.. حتى أذن له فمشى إليه فرحاً بهذا الإذن الممنوع كأنه الإذن بالخلاص.. ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله: من أنت؟.. قال ولم يزد: أنا علي. قال: ابن عبد مناف؟.. قال: ابن أبي طالب. فأقبل عمرو عليه يقول: يا ابن أخي.. من أعمامك من هو أسن، وإنني أكره أن أهريق دمك، فقال له علي: لكنني والله لا أكره أن أهريق دمك. فغض عمرو وأهوى إليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار، واستقبل على الضربة بدرقته ففقد السيف وأصاب رأسه، ثم ضربه على حبل عاتقه فسقط ونهض، وسقط ونهض، وثار الغبار، فما انجلي إلا عن عمرو صريعاً وعلي يجأ بالتكبير.

وكانما كانت شجاعته هذه القضاء المحتم الذي لا يؤسى على مصابه؛ لأنه أحجى المصائب، وأقلها معابة ألا يدفع. فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسى بعد موته:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله
بكيته أبدا ما دمت في الأبد
لكن قاتله من لا نظيره
وكان يدعى أبوه بيضة البلد

* * *

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التي يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب..

ويزيدها تشريفا أنها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء.. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها على بغير كلفة ولا مجاهدة رأى. وهي التورع عن البغى، والمروءة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال.

فمن تورعه عن البغى، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة، أنه لم يبدأ أحدا قط بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن: «لا تدعون إلى مبارزة. فإن الداعي إليها باغ والباغى مصروع»..

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له: إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك، فقال: «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني. وسيفعلون!..»

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفين، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عدااء العدو أو غمض: يدعوهم إلى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلم.

كان يعظ قوما فبهرت عقلته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح معجبا إعجاب الكاره الذي لا يملك بغضه ولا إعجابه: قاتله الله كافرا ما أفقهه.. فوثب أتباعه ليقتلوه، فنهاهم عنه، وهو يقول: إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب.

وقد رأينا أنه قال لعمر بن ود: إنى لا أكره أن أهريق دمك.. ولكنه على هذا لم يرغب في إهراق دمه إلا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين.. فعرض

عليه أن يكف عن القتل فأبى ومن، إن تتحدث العرب بفرارى، وباشده ب عمرو إنك كنت تعاهد قومك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خليين إلا أخذت معه جدهما قال أحر قال فإبى أدعوك إلى الإسلام أو إلى الحلال قال ولم ي ب أخى؟ فقال له ما أحب أن أفتك فلم يكن له بد بعد ذلك من إحدى اتنتين أن يقتله أو يقتل على يديه

وعى ما كان بينه وبين معاوية وحدوده من اللد في العداء لم يكن يدرلهم ولا يأخذ من ثارانه وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة فاتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كريس بن الصباح الحميري فصاح بين الصفين من يبارز؟ فخرج إليه رجل من أصحاب على فقتله ووقف عليه وبنى من يبارز؟ فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى من يبارز؟ فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبيه، ثم نادى رابعة من يبارز؟ فأحجم الناس ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي بينه، وخاف عى أن يشبع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل المدى بشجاعته وبأسه فصرعه، ثم نادى نداه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعة بأصحابه، ثم قال سمعوا الصفوف ي أيها الناس إن الله عز وجل بقول ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾، وولم تبدءوا ما بدأناكم ثم رجع إلى مكانه

أما مروته في هذا الباب فكانت أندر من دوى المروعة من شجاعته بين الشععار، فأبى على حنده وهم باقون أن يقتلوا مدبراً أو يجهزوا على حريق أو يكشفوا ستراً أو يأخذوا ملاً، وصلى في وقعة الحمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء، وظهر بعبد لله بن الربيع ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه المؤمنين عليه فعف عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظهر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من حيش ذي عدة فأعرض عنه وتركه يسبح بحياته حين كشف عن سوائه انقاء لصريته وحال حرب معاوية بينه وبين اسماء في معركة صغير وهم يقولون له ولا نظرة حتى تموت عطش فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سور لهم أن يشربوا منه كما يشرب حنده، وراى السيدة عائشة بعد وقعة الحمر فصاحت به صفيية أم طلحة الطلحات أينم الله منك أولادك كما أقيمت

أولادى فلم يرد عيها شيئ، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها، فارح رخص اعصبه مقالها بأمير المؤمنين أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما نسمع؟ فانتهره وهو يقول ويحكم؟ إنا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟ وبه لى طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين يبالان من عائشة فأمر بحسهما مائة حلقة ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار فى ركابها أميالا وأرس معها من يخدمها ويحف بها قيل إنه أرس معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمنهن بالعمائم وقلدهن بابسوف فما كانت ببعض الطريق تذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت هتك ستري برحانه وحده الدين وكلهم بى فلم وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمامهن وقلن لها إنما نحن نسوة

وكانت هذه المروءة سته مع خصوصه، من استحق منهم انكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان فى حرمة عائشة رضى الله عنها ومن لم تكن به قط حرمة، وهى أندر مروءة عرفت من مقاتل فى وعز القتال

وتعدنها فى السبر والمدة سلامة صدره من الضعن على أعدى الناس له وأصرهم به وأشهرهم بالصعن عليه فهى أهله وصحبه أن يمثلوا بقاتله، وأن يقتلوا أحدا غيره ورثى صلحة لى خلع بيعته وجمع الحموع لحريه رثاء مجرون بغيص كلامه بالألم والمودة، وأوصى أتباعه ألا يقتلوا الخوارج الذين شقو صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكابوا شرا عليه من معاوية وحده، لأنه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين

* * *

رتقترن بالشجاعة. ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم. صفة لازمة لها منمة لعملها فيما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنصح للماء، أو بالإشعاع للبور، فلا تكون شجاعة الفروسة إلا كانت معها تلك الصفة التى تشير إليها، وهى صفة «الثقة» أو «الاعتزاز» أو الاسراع بالهبة والتهويل على الحصوم ولا سيما فى مواقف البرا وقد يسميها بعض الناس رهوا ولحست هى به ولا هى من معدنه وسمته، وإن شابهته فى بعض الملامح والألوان

فالرهو المدموم فصول لا لزوم له ولا خير فيه، وهو لور حارس قد يوحد مع الصنف كما يوحد مع القوة، وقد يبدو على انحياز كما يبدو على الشجاع

أما هذا الاعتزاز لدى بشير إليه، أو هذه الثقة التي تظهر لنا في صورة الاعتزاز، فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستعسى عنه ولا يرال متصلا بعمله في مواجهة خصومه، وهو عرض لنفوة يساعد الفارس في إرهاب عدوه وإضعاف عزيمة من يتصدى لحربه. مثله هنا كمثّل العروص التي تعتمد إليها الحيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها. فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تفصل عنها، وليس كل ما فيها صريحا من انحياز يرصى به الشجاع عروبه ويتيه به في غير حاجة إلى التمهيد

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكري من قديم الزمن وعهدوه وتحذثوا به وتنقلوه، فسمحوا للفارس - بل لعلمهم وأحبوا عنه - أن يروغ من خصمه بالفضح، المرعب إذ يتقدم لمراله، وأن يلاقيه وهو يشد الأشعار في ذكر وقعاته وأنهرين بصربات والإشدة بعزواته، وعمروا أسهم - وقد احتأجوا إلى شجاعته - محتاحون كذلك إلى فخره وحماسه وإيقاع الرعب في حبال قرنه، فشاعت فصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمأحاة، وهي أحب القصائد إلى القلوب.

. . .

ومن تأصل هذه العادة في الطباع أنها شاهد في جميع لأحياء فطره ورتحالا يغير اضطباع ولا يعمد، فلا يرى حيا من الأحياء الباطنة أو العجماء يدرك قريبا له إلا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه وأسطالة قدره وسمير بطره وبنفيس ريشه أو شعره ويقف الإنسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويزق بده عليه ويقور بلسان حاله ما يقال باللسان فإذا هو الفخر والحماسة، وإذا هو عنوان الثقة والإقدام

هذه الصفة لازمة لفارس الميدان ولا سبب فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وحدها بوحه، وينظر أحدهم إلى قرنه وهو يهجم عليه

وكانت هذه الصفة من صفات على رصى الله عنه، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يصيق صدرا بعصله، وينكرها من يبعس عليه فيسميها ابرهو أو يسميها

انجھوة والخيلاء. قال له فمس من سعد بعد عربه من ولاية مصر إنك والله ما علمت
لتنظر الخيلاء. ومرا الزبير بن العوام مع رسول الله في بني عويم، فرأى رسول الله
عبداً على مقربة منه فصحك له وصحك على يحييه فقال الربير لا يدع ابن أبي
طالب رهوه. قال رسول الله إنه ليس به رهو، ولتقتله وأنت به طالم.

فليس هو بالزهو المكروه، ويكبه الشحاعة التي يمتلئ بها الشجاع وانثقة
التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها، لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها
ولم يحس أنه يحتاج إلى مداراتها، ولأنه لا يقصدها ولا يعتمد إبداءها

* * *

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة صيلة فيه لم تفارقه منذ
حبا ودرج، وقيل أن بسغ مبلغ لرحل عما منعه الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم
أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يركن إليه المستحير. ولقد كان في
العاشرة أو نحوها يوم أحاط لقروم القرشيون بالنبي عليه السلام يندروه
وينكروه وهو يقب عينه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير. ثم كان
يعلى أن يرتاع في مقام نحد أو مقام عريمة لارتاع يومئذ من أولئك لشيوخ
الدين رفعتهم لوحاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الحشية والحشوع،
ولكنه كان علياً في تلك أسس الباكرة كما كان علياً وهو في الخمسين أو الستين
هم ترد. وهم مستهزون أن يصيح صيحه الواثق العضوب أنا نصيرك
فصحكوا منه صحك الجهر والاستكبار، وعلم انقدر وحده في تلك اللحظة أن ما يبد
ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم.

عسى هذا هو الذي سام في فراش النبي ليلة الهجرة، وقد علم، تتمر به مكة كلها
من قتل الراقد على ذلك الفراش

وعلى هذا هو الذي تصدى لعمر بن ود مرة بعد مرة والنبي يحلسه ويحذرهم
العاقبة التي حذرهما فرس العرب من غير تحدير، يقول النبي احلس إني عمرو
فيقول وإن كان عمرا كأنه لا يعرف من يحاف ولا يعرف كيف يخاف، ولا
يعرف إلا استحاعة التي هو ممتلئ بها واثق فيها في غير كلفة ولا اكتراث

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التي هي كم أسلف حرم منها
وأداة من أدواتها

ورادها تمكينا حصد الحاسين ولحاحة المنكرين، وكلاهما خليق أن يعصم
المرء منه بثقة لا تتحدل، وثقة لا تلبس فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها
من ميدان الشجاعة إلى ميدان العزم والرأي حين كان يقول «سألوني قبل أن
تفقدوني، فوالدي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا
عن هئة تهدي مائة وتصن مائة إلا أبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ
ركابها ومحط رجالها»

ومن شواهد ما أنه كان يقول والخارجون عليه يرحمونه بالمروق «ما أعرف
أحدا من هذه الأمة عبد الله بعد نبيا عيسى، عبدت الله قبل أن يعبدته أحد من هذه
الأمة تسع سنين»

وزاده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه، فلما عتب عليه خصما طلحة
والربيع أنه ترك مشورتها قال «نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا
بالحكم به فاتبعت ما استن النبي ﷺ فافتدته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكم
ولا رأي غيركم، ولا وقع حكم جهته فاستشيركم وإخواني المسلمين، ولو كان
ذلك لم أرغب عنكم ولا عن غيركم»

وأبدى هذه الخليفة منه أنه كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال على أن
يتألف، من كان يقول «شر الإخوان من تكلف له» ويقول «إذا احتشم المؤمن أخاه
فقد فارقه» فكان الذين ينتظرون منه الاصطباع والإرضاء يخطئون ما ينتظرونه
ولا سيما إذا هم انتظروه من أرق رعاياه وحقوقهم لتي أو تمن إليها فيحسبون
أنها الجفوة البينة وأنه الرهو المقصود وما هو بهذا ولا بتلك إنما هي شجاعة
الفارس ولو أزمها التي لا تنفصل منها، وإنما هو امتعاض المعموط المسمى ظن
بمن حوله نراى على سحيته في غير مداراة ولا رياء هم كان يتكلف إظهار تلك
الخلائق زهرا كما بسمونه أو حقوة كما يحسبونها، من كان قصصه ألا يتكلف
الإخفاء، فإذا التفت قاصدا إلى ما في نفسه فهو لا بعصد الحب ولا يرضاء، بل
ينهى عنه ويشته في إجابته، ويوصى من أحب «إياك ولا إعجاب بنفسك والثقة
بما يعجبك منها» «واعلم أنه الإعجاب ضد الصواب، وأفة الألب»

بعم كان ملاك الأمر في أخلاق على عليه السلام أنه كان لا يتكلف إظهار شيء
ولا بتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مراحيه فربما أفرط الرجل في

انشاء عليه وهو منهم عدده فلا يدعه حتى يعلل له طويته ويقول له «أنا دور ما
تفعل وفوق ما في نفسك»

* * *

وكاتب منه التكليف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والياس
والامتلاء بالثقة والمبعة وكاتب تسلك معه مسلك تحقيقه والمحار على السواء
كأنه بمعنى ما يصنع وهو لا يعنيه وبما يحى منه على الدبهة كما تحى
الأشياء من معادها كان مثلاً يخرج إلى مبارره حاسر الرأس ومبارروه
مقنعون بانديد أفعيب منه أن يخرج إلهم حاسر النفس وهم مقنعون بالعينة
وسرياء؟ وكان يعص الحصاب أحياناً ورسول الشيب باصعب وهو لا يحرم
خصبه في غير ذلك من الأحياء أفعيب منه مع هذا أن يعلل أكثره لكل
خصاب ساترا ما ستر أو كاشفا ما كشف من رأى وخليقة؟

من كانت فله انكلف هذه توافق منه خليقه أخرى كالشجاعة في قوتها
ورسوحها أو هي قربة لشجاعة في نفس افارس البيل رلف تفردوها، وبغى
بها خليقة الصدق الصراح الذي يحترئ به الرجل على الصر واللاء كما يحترئ
به على المفعة والنعماء فما استطاع أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف فيها
الحق الصراح في سلمه وحرية وبين صحبه أو بين أعدائه، ولعله كان أحوج إلى
المصانعة بين البصراء مما كان بين الأعداء لأنهم رهموه باللاجحة وأعتوه
بالخلاف فم عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء، حتى قال فيه أقرب
الناس إليه إنه رحى يعرف من الحرب شجاعها ولكنه لا يعرف خدعتها وكان
أبداً عند قوله «علامة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يصرك، على الكذب حيث
ينفعك، وألا يكون في حديثك فصل على علمك، وأن تنفى الله في حديث غيرك»

* * *

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقابلة سبانه، فلم يعرف أحد
من الخلفاء أرهد منه في لده دنيا أو سيب دولة، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل
الشعير وتطجبه امرأته بيديها، وكان يختم على الحرب الذي فيه دقيق الشعير فيقول
«لا أحب أن يدخر بطنى ما لا أعلم» قال عمر بن عبد لعير وهو من أسرة أمية التي

تبعصر علياً وتخلق له أسينات وتحفى ما توافر له من الحسنات «أرهد الناس في الدنيا على من أبي صالب» وقال سفيان «إن علياً لم يبن أحره على أحره ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة» وقد أبى أن يدخل لقصر الأبيض بالكوفة إثارة للخصاص التي يسكنها الفقراء، وربما باع سيفه لشترى بثمنه اكساء والطعام وروى البصر بن منصور عن عفة بن علفه قال «دخلت على عى عليه السلام فإب بين يديه لير حامص اذتنى حموضته وكسري بسه ففقت يا أمير المؤمنين، تأكل مثق هذا؟ فقال بى يا أب الحرب كان رسول الله يأكل أيس من هذا ويبس أخش من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإن لم أحد بما أخذ به خفت ألا ألحق به»

وعلى هذا الزهد الشديد كان عى رضى لله عنه أبعد الناس من كررة طمع وصيق حظيرة وجهاء عشرة، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقار دعاية، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال له «لله أبوك لولا دعاية فبك» وأنه قال لمن سألوه فى الاستخلاف «ما أظن إلا أن يلى أحد هذين الرجلين على أو عثمان فإن ولى عثمان فرحل فيه لير، وإن ولى على ففيه دعاية، وأحرى ب أن يحمدهم على الطريق».

* * *

وأعرق بن العاص فى وصف الدعاية عساها «دعاية شديدة» وطفق يرددها بين أهل الشام ليقدر بها فى صلاح لإمام للحلافة، وأما نقول إن ابن العاص أعرق فى هذا الوصف، وإن الدعاية المعيبة لم تكن قط من صفاته، لأن تاريخ على وأقواله وموارده مع صحبه وعدائه محفوظة لديها لا يرى فيها دليلاً على خلق الدعاية فضلاً عن الدليل على الإفراط فيه. فبن كان لهذا الوصف أثر أمار لعمر ابن الخطاب أن يذكره فيما كان مرجع ذلك أن علياً خلا من الشغل سنين عدة فأعماه الشعر لشاغر من صرامته وأسلمه حياء إلى سماحته وأحادث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعاية البريئة ثم بالغ فيها المبالغون، ولم يثبتوه بقصة واحدة أو شاردة واحدة تحير لهم ما نقولوه

وقد كانت لإمام صفات ومزاي فكرية تناصى لمشهور المتفق عنه من صفاته النفسية ومزايه اخلاقية فاتفق خصومه وأبصاره على بلأعته، واتفقوا على علمه وعظمت، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رايه فى علاج الأمور ودهائه فى سياسة الرجال.

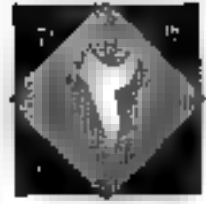
والحق انى لا مرأه فيه أنه كان على نصب من العظيمة بصفه لا يكره منصف، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة فى مشكلات الحكم والقضاء، وأنه كان أشبه لخلعاء بالباحثين والمقبيين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الدين شرعو علم الكلام قبل أن يتطرق إليه علم فارس أو علم يونان. وكان يفهم أخلاق اساس مهم العام المراقب لخصيا الصدور ويشرحها فى عضاته وخطبه شرح الأديب اللبيب.

إلى هنا متفق عليه لا يكثر فيه لخلاف، ثم يفترق لاس فى رأيه رأيين وإن لم يكونوا من الشانئين المنحزبين، فيقول أساس. إنه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة، ولكنه عدد العمل لا يرى ما تقصى به الساعة الحاربة ولا ينتفع بما يراه. ويقول أساس بل هو الاضطراب وانحرج يقيداه ولا يقندان أعداءه وإنهم لدومه فى العظيمة والسداد، وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بمشابه من هذا العدر حين قال «والله ما معاوية بأدهى منى، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية العدر لكنت من أدهى الناس»

* * *

أما مقطع الرى بين الرايين مبرحو أن بعضه فى مواضعه من الفصول القافية مشفوعا بمناسباته، ولكن مستطيع أن نمرم ما بحقيقتين تحملا ما نبسطه فى مواضعه من الكتاب، ولا محسبهما تتسعار لجبل طويل، وهما أن أحد لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأصح فى عصر المشكلات من العمل برأى الإمام، وإن أحد لم يثبت قط أن خصوم الإمام كانوا يصرفون الأمور خيرا من تصريفه، لو وضعوا فى موضعه واصطلحت عليهم المتدعب التى اصطلحت عليه. وكنت الحقيقتين حرية أن تصبط لسان المبران قبل أن يميل فيعلو به المين هنا أو هناك

هذه صفات تنتظم فى نسق موصول. رجس شجاع لأنه قوى، وصادق لأنه شجاع وراهد مستقيم لأنه صادق. ومثار للحلاف لأن الصادق لا يدور بصاحبه مع الرصد والسخط والقبوى والنفور، وأصدق الشهادات لهذا الرصد الصادق أن الناس قد أثبتوا له فى حياته أجمل صفاته المثلى، فلم يختلفوا على شيء منها إلا الذى اصطدم بالمطامع وتفرقت حوبه الشبهات، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم.



مفتاح شخصيته

«آداب الفروسية» هي مفتاح هذه الشخصية البهيلة الذي يفص منها كل معقوف ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير.

وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي تلخصها في كلمة واحدة وهي النبوة وقد كانت النبوة طبع في علي فطر عليه، وأدبا من آداب الأسرة الهاشمية مشأ فيه، وعادة من عادات «الفروسية» لعملية التي يتعوبها كل فارس شجاع متعلب على الأقران، وإن لم يطلع عليها ويشأ في حجرها، لأن لعلبة في الشجاع ألفة تأبى عليه أن يسف إلى ما يحجله ويشيبه، ولا تزال به حتى تعلمه البخرة تعمها، وبمعه أن يعمل في السر ما يزرى به في العلانية.

وهكذا كان علي رضي الله عنه في جميع أحواله وأعماله بلغت به نبرة الفروسية غايتها المثلى، ولا سيما في معاملته الضعفاء من الرجال والنساء، فميس الشرف قط ليعتم الفرصة، ولم يسوره الرب قط في الشرف، والحق أنهما قائمان دائمان كأنهما مودعان في طبائع الأشياء، فإذا صنع ما وحب عليه فليس من شاءوا ما وحب عليهم، وإن أقادوا كثيرا وباء هو بالحصار.

أصاب المقتل من عدوه مررب فلم يهتب الفرصة السابحة بين يديه، لأنه أراد أن يعلب عدوه علبة الشجاع الشريف، ولم يرد أن يعلبه أو يقصص منه كييما كان سبب اللعب وانقصاص.

فإن بعض من شهدوا معركة صغير لم قدموا على معاوية وأهل الشام بصفتهم وحداهم قد برلوا، من لا اختاروه مسويا بساطا وأسعا وأخذوا الشريعة أي مورد الماء. هي أيديهم. وقد أجمعوا على أن يمعوبوا أسماء، ففرعنا إلى أمير المؤمنين فخيربه بذلك فدعا صمصعة بن صرحان فقال له أنت معاربه وقيل له إنا سرب مسيرنا هذا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإعرار إليكم، وإنك قدمت إلينا خيلك ورحلك ففانلنك قبل أن نقاتلك وبدأت، ونحن من رأينا لكف عيب حتى ندعوك وبحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها إنا حلتنا بين الناس وبين الماء.

ولباس غير منتهين أو يشربوا فابعث إلى أصحابك فيحطو بين أساس وبين الماء ويكفوا حتى ينظر فيما بين وبينكم وفيما قدما له وقدتم له »

ثم قال راوى الخبر فمعه من معاوية سائر أصحابه فأشاروا عليه أن محول بين على وبين المورد غير حافس بدعوته إلى أسلم ولا بدعوته إلى المفوضة في أمر الخلاف فأبعد معاوية مسارا إلى حراس المورد بحمويه ويصدور من يقترب منه، ثم كان بين المعسكرين تراشق بالببل قطع بالرمح فصرع بالسيوف حتى اقتحم أصحاب على طريق الماء وملكوه

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء على أن يهتبلها، وأن يعلب أعداءه باسطلما كما أرادوا أن يعلبوه به قبيل ساعه وقد جاء أصحابه يقولون والله لا نسقيهموه فكأنما كان هو سفير معاوية وحده إليهم يتشفع لهم ويستلبن فلويهم من أجلهم وصاح بهم : «حدو من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم»

ولاحت له فرصة قدس هذه الفرصة في حرب أهل البصرة، فأبى أن يهتبلها وأعصت أعوانه إنصاف لأعدائه لأنه نهاهم أن يسندوا الماء ويستنجحوا السبي وهو في رأيهم جلال قالوا أترأه يحل لب دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟ فقال «إنا القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لجج حتى يصاب فقتله متى على الصدر والبحر ومن لهم سئة الغروسية أو سئة البخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبرا ولا يحجروا على حرج ولا يكشفوا سر ولا يمدوا يد إلى مال

ومن الفرص التي أتت عليه البخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو تلقى على الأرض مكشوف السوء لا يبالى أن يدفع عنه الموت بما حصره من رقاء فصدف بوجهه عنه أنها أن يصرع رجلا يخاف اموت هذه المخافة التي لا يرصاه من مبارله هي محار صراع، ولو غير على أتيج له أن يفصى على عمرو يعلم أنه قاص على جرثومة عدا ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث صفر به ولا حبس عليه

لقد كان رصده من الآداب في الحرب والسلام رصداً الفروسية العريضة من جميع
آدابها ومآثوراتها

فكان يعرف العدو عدوه حيثما رجع للسيف بقتاله ولكنه لا يعارى امرأة ولا
رجلاً مولياً ولا حريقاً عاجزاً عن نصال ولا منداً ذهبت حياته ولو ذهبت في
سبيل حربه بل لعله مكر له ما صبه يومئذ فيقف على قبره لبكبه ويرثه
ويصلى عليه

وهذه الفروسية هي التي يعصت إليه أن يبان أعداءه باسناد وليس من داب
الفراس أن يبان أعداءه بغير الحسام

فلما سمع قوم من أصحابه يسبون أهل أشام أنام حروبهم بصعين قال لهم
«إني أكره أن تكونوا سبائين ولكنكم لو وصفتهم أعمالهم وذكرتم حالهم كن
أصوب في القول وأبلغ في العذر وعلتم مكان سيكم إياهم اللهم احقق دماءنا
ودماءهم، وأصبح رأت بهننا وبهينهم واهداهم من صلالهم حتى يعرف الحق من
جهله، ويرعوى عن الغي والعدوان من نهج به»

وربما شد عن سنته هذه في بعض الأحيان فإذا به لا يشد عنها إلا كما يشد
الفرسان حين تغلبهم بوارير اللسان فقدر بين رجاء لسيف من يسمع الكلمة
المغصبة فلا يبطق لسانه بكلمة عوراء يجارى بها عصبه الذي طبع على إبدائه
ولم يطبع على كتمانها

ومن قبيل هذه كلمات قالها علي في ابن العاص وفي معاوية وفي الأشعث بن
قيس وغير هؤلاء ولكنه لم يجعلها ديدناً له كما سبوه على المبارز وأشاعوا
مدمته بين أهل الأمصار

شعب عليه الأشعث بن قيس ومروء عليه الحيد وأنشئ بين أنصاره القعدة وقطعه
مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأعضبه وماج عيطه فبدره بقوله «عليك لعنة
الله ولعنه للأعيس حائك ابن حائك، متفق ابن كافر، والله لقد أسرت الكفرة مرة
والإسلام أخرى فما فداك من واحدة منهم منك ولا حسبك، وإن مرا ولي على
قومه اسيف وساق إبيهم الحتف لحري أن يمهه الأقرب ولا يأمنه لأبعد»

وطفق اس اعاصر يبعته بين أهل الشام بالهرق والدعابة وبأمر بسبه على المباير حتى وحب رده وإدحاص رعمه، فقال رضي الله عنه في بعض خطبه عجبا لاس السابعة^(١) يرعم لأهل الشام أن في دعابة وأنى امرؤ تلعبه أعسس^(٢) وأمارس لقد قال باطلا ويطق أنما أما - رشر انقول الكذب - به ليقول فيكذب، وبعد فبخلف، ويسأل فيبحر، وبخور العهد ويقطع الآر^(٣) فإذا كان عند الحرب فأى راحر وأمر هو ما لم يأخذ السيوف مأخذها فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمح القوم سبته، أم والله إني ليمعسى من اللعب ذكر اموت. وإيه يمسعه من هول الحق نسيان الآخرة وأنه لم يدافع معاوية حتى شرط أن يؤبىه أنبىة ويرصخ به على برك الدين رضىخة^(٤)

وكذلك كان يحبه معاوية وغيره بنطائر هذه الكلمات حين يحترنون عليه بما يعصر من حقه ويقدح في دعوته فلا يشد عن ريدن الفرسان في روية فكره ولا هي بواند لسانه، ولكن الفلتات التي من هذا القبيل شيء واتخذ السبب صناعة دائمة وسلاحا مشهورا وسبيلا إلى القول لباطل شيء آخر

ولقد كانت للإمام رضي الله عنه شواغل أخرى غير افروسية تحرى في مجراها حيناً وتبدو عربية عنها حيناً آخر في عرف بعض الدقدين، ومنها انتفهقه والبزوع إلى «التصوف» واستبطا حقائق لأشياء

* * *

فهذه هي عرف بعض الحافدين ليست من مزاج الفروسية على ظهروا قدروا ولكن ما التصوف أو لتجرد للحقيقة^(٥) ألس هو في معده جهادا في الحق أو جهادا في الله^(٦) ألست طبيعة الجهاد وطبيعة افروسية من معدن واحد^(٧) ألم نعهد في كل ملة وكل زمان قتال من الناس يجاهدون لأنهم متدينون منطسوس، أو يتدينون ويتنصسون لأنهم مجاهدون؟

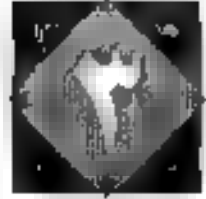
فالإمام علي رضي الله عنه فارس لا يخرج من الفروسية فقه الدين، بن هو أخرى أن يسلكه فيها، ولا يخرج من الفروسية بعض المقل في خصومه، بن هي برادر الفرسان بعيها، ولا تتران اداد الفروسة بشتى عورصها هي المفتاح الذي يدار في كل باب من أبواب هذه النفس فربا هو مكشف لناظر عما يليه

(٢) الآل القرابه والرحم

(١) المعاصرة مضاربة الناس مرادها ومعارف الساء

(٣) الاتية العطية. ومثلها الرضىخة مع فيه

إسلامه



وبدأ على في داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكانما كان ميلاده ثمة إذنا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها
وكاد على أن يولد مسلماً

بس فقد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى مبادئ العقيدة والروح لأنه فتح عينيّه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام

فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وروجه الصاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مصاعفة ومحبة أوثق من محبة «قرابة» فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيبه الذي نشأ في بيته ونعم يعطفه وبرّه، وقد رأيت انخراطه يحبون محمداً ويؤثرونه على آبائهم ودويهم، فلا حرم سحبه هذا الحب من يحميه به جده، ويجمعه به بيت، ويجمعه به حمين معروف حميل أبي طالب مؤدبه محمد وجميل محمد يحسه ابن أبي طالب ويأوى إليه

واختفوا في سنّه حين إسلامه من السابعة إلى السادسة عشرة، ولعبه أسلم في نحو العاشرة، لأنه كان يباهرها عند إعلان الدعوة المحمدية، وكان النبي عليه السلام يتعبد في بيته عبادة الإسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة، وليس ما يمدح علياً أن يألّف تلك العبادة في طفولته ابتكراً فليداً هو يعرف منها وأعرض عنها لغير سبب في تلك الطفولة الباكّة، فالعجيب أنه يعود إلى ألفتها وحرصاً بها بعد أن بلغ اسر التي يعرف فيها معنى «العصب لعباده الآباء والأحباء»

ولولا ألفة على لأبى عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذي دعى إليه، فقد أصرّ كثير من أرباء النبي على لشرك ربه طهلاً، منهم عقيل أخوه وأحب أحوته إلى أبيه، فحارب المسلمين في بدر ولم يسلم وقد وقع في أسر النبي وصحبه بن اقتداء عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين

على أن الألفة بين ابني العم الكريمين قد اوشكت أن تكون عائقا لإسلام عليّ
 في طفولته بذاكرة لأن النبي عليه السلام أبى أن يترفع الطفل من دين أبيه
 وأبوه لا يعلم، وأشفق أن يكون بره بعمه وبابن عمه سبيلا إلى انحرقة بين الأب
 وابنه وهو لا يدرك ما يفعل، ولم يشأ أن يعود الطفل الصغير أن يحفى سرا عن أبيه
 كأنه يحدده بجهته ولو في سبيل الهداية والخير، فطر هذا الحرج الكبير عائقا
 عسيرا أعسر ما فيه أنه عائق اختار بهون معه الاضطراب، أو عائق حيرة تقر في
 حيلة الكريم. حتى شاع أمر الدعوة المجددة وعلم بها أبو طالب وبصر ابن أخيه
 وأمر عليا بمتابعة ابن عمه وبصره، فأقبل العلام البر بأبيه وبكافله إقبالا لا
 تلحج فيه على الدين الحديد

وملأ الدين الجديد قلبا لم يمارع فيه مبرع من عقيدة سابقة ولم يحالطه
 شوب يكدر صفاءه ويرجع به إلى عقيدته فبحق ما يقال إن عليا كان المسلم
 الخالص على سحيته المثلى، وإن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاما منه ولا
 أعمق مفادا فيه

كان المسلم حق المسم في عبادته، وفي علمه وعمله، وفي قلبه وعقله، حتى
 لصح أن يقال أنه طبع على الإسلام فلم تدره المعرفة إلا ما يريده التعليم على
 انصب

كان عبادا يشتهي العبادة كأنها رياضة تريحه ولمست أمرا مكتوبا عليه
 وكان يرى في كهولته وكأفها جبهته شفة بعير من إدمان السجود وكان على
 محبة في الإسلام لا يجد عنها لوعة ولا لحشة، فكما رويوا له الهودة أبي «أن
 بداهن في دية ويعطى الدية في أمره» وأثر بخير كما يراه على الخير كما يراه
 الناس

وكان دية له ولعدوه، من له ولعدو دية، فم كان الحق عنده من يرضاه دون
 من يقلاه، ولكنه كان انحق بكل من استحقه وإن بهته وأباه

* * *

وحد درعه عبد رحل بصراسي فأقبل به إلى شريح. قاصيه يحاصمه
 محاصمه رحل من عامة رعاياه، وقا: به درعى وبم أبع ولم أهب، فسار

شريح النصراني ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال النصراني ما اندرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عدي يكاد! فالتفت شريح إلى عبي يسأله يا أمير المؤمنين هن من بيعة؟ فصحك علي وقال أصاب شريح ما لي بيعة؟ فقصي بالدرع للنصراني فأخذها ومشى و «أمير المؤمنين» تنصير إليه إلا أن النصراني لم يحط خطوات حتى عاد يقول أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء أمير المؤمنين يدينني إلى قاصيه يقصني عليه أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، الدرع وأبلى سرعت يا أمير المؤمنين اتبعت الحيش وأنت منطلق إلى صفين فخرحت من بعيرك الأورق ففد أما إذا أسلمت فهي لك وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الحنن بلاء في قبال الخوارج يوم النهروان

وأحسن الإسلام علما وفقها كما أحسنه عبادة وعملا، فكانت فتواه مرجعا للخلفاء والصحابة في عهد أبي بكر وعمر وعثمان، وبدرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن به رأى فيها يؤخذ به أو تهضر له الحجة بين أقص الأراء

غير أن المزية التي امتاز بها علي بين فقهاء الإسلام في عصره أنه جعل الدين موضوعا من موضوعات لتفكير والتأمّن، ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام، فإن عرف في عصره أسس فقها في الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقصيته وأحكامه، فقد امتاز علي بالعمق الذي يرد به الفكر المحصن والدراسة الخالصة، وأمعن فيه لتعوض في أعماقه على الحقيقة العلمية، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام.

* * *

ويصح أن يقال إن علي، رضي الله عنه، أبو علم الكلام في الإسلام لأن امتكلمين أقاموا مذهبهم على أسسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج النبلاء فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ علي رضي الله عنه وأما الأشعرية فابهم يتمون إلى أبي الحسن علي بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الحنابلي، وأبو علي الحنابلي أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء أما الفقه فسامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن

محمد عراً على أبيه وهكذا ينتهي الأمر إلى عني رضى الله عنه وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأي، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس وقرأ عبد الله بن عباس على علي رضى الله عنه، وقيل لابن عباس أين علمك من عمك؟ فقال كسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط.

* * *

قال ابن أبي الحديد: «ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال النصوص، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنده يقفون، وقد صرح بذلك الشبلى والجند وسوى وأبو يربيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم، ويكفيك دلالة على ذلك الحرقعة التي هي شعاع هم إلى اليوم، وكوبهم يسندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام.»

وقد جمع «بهج البلاغة» نماذج شتى من الكلمات التي تنسب إليه ويصح أن تحسب أصلاً «للعلم الإلهي» أو لأسرار التصوف في صدر الإسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية وربما وقع الشك في نسبة بعض الكلمات إلى علي رضى الله عنه، لأنها تجمعت بعد عصره برمن طويل وامتزج بها ما لا بد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده ولكن شيئاً على هذا البهج لا بد أن يكون قد صدر منه حفا حتى حار أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذي توافقت به الأقوال، وأحملة ابن أبي الحديد فيما تقدم

ولب أن نقول إنه كان رضى الله عنه يتقيد بالعرفان الكريم ويستوحشه مصاً في عرفان إسلامه وتقريره بمصه فكانت مطرته إلى الخلق والخالق مطرة قرآنية مبتكر ما شاء ابتكر التلمذ في الحكاية عن الأستاذ، فكلامه عن الطائوس والخفاش والزرع والسحاب إنما هو الدرس القرآني الذي وعده من أمر الكتاب بالنظر في المخلوقات ووصف الكتاب لصوائف منها كاللؤلؤ والنحل والطير والأجنة في الأرحام فهو تلميذ ربه جلّ وعلا في قوله عن الخفاش «من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أراها من عوامص الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبصها الصياد الباسط لكل شيء ويبسطها الطلام النقايس لكل حي وكيف عشت أعينها عن أن تستمد من الشمس المصيبة نورا تهتدي به في مهابها فسبحان من جعل

الليل بها بهارا ومعاشا والنهار لها سكنا وقرارا، وحمل لها أجحة من لحمها
تخرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شطايا الآذان، غير دوات ريش ولا
قصب تطير ولدها لاصق بها لاجئ إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا
يفارقها حتى تشتد أركانها، ويحمله للنهوض جياحه، ويعرف مداها عيشه
ومصالح نفسه فسبحان الدارئ بكل شيء على غير مثال خلاف غيره».

ومثله قوله عن الطاووس «ومن أعجبها خلقا الطاووس الذي أقامه في أحكم
تعديل وبضد ألوانه في أحسن تنصيد، بحناح أشرج قصبه وذب أطال سحبه، إيا
روح إني الأنثى نشره من طنه، وسما به مطلا على رأسه وقد يحسر من ريشه
ويعري من لباسه فمسقط تترى وينبت تباعا، فيبحت من قصبة بحتات أوراق
الأعصان، ثم يتلاصق ثانيا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يحالف سالف
ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه»

ونحن لا نستعرب ابتداء هذا النمط من انظر الفلسفي على نحو من الأنحاء في
عصر الإمام علي رضي الله عنه، لأنه كان عهدا ببت فيه أصول الفرق الإسلامية
جميع من الخوارج والشيعة والقبائلين بالرحمة وتناسخ الأرواح والمجتهدين في
قراءة لقرآن وتفسيره على شتى المذاهب فأقرب شيء إلى المعقول أن يكون إمام
العصر كله قدوة في الاجتهاد والنصر وغنونا للنوارع التي تفرقت بين أهل زمانه
ونعتبر اصادقا لتفكيره ووعيه، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التي
قدمناها وإن لم تكن هي إياها بالنص والتفصيل

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الإمام علي سحيته مؤثرا للاجتهاد ما
استطاعه، معرضا عن التقليد ما استعنى عنه، فوافق الخلفاء من قبله في أمور
وخالفهم في أمور، وأبى أن يأنم بعملهم فيما يراه وما لا يراه، وأوصى ابنه
الحسن وقد بلغ الستين فقال «اعلم يا بني أن أحب ما أنت أخذ به إلي من
وصيتي تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بمحصى عليه
الأولون من أهلك والصالحون من أهل بيتك، فإنهم لم يدعوا أن يصروا إلى أنفسهم
كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر فإن أبت نفسك أن تقبى ذلك دون أن تعلم
كما علموا فليكن طلبك ذلك بتقوى وتعلم، لا بتورط الشبهات، وعلق الخصومات،
وانتدى قبيل بطرك في ذلك بالاستعانة بإهلك، والرغبة إليه في توفيقك، وترك كل

شأنه أو بحثك هي شبهة أو أسلمتك إلى ضلالة، على أيقنت أن قد صف قلبك، وتم
رأيتك فاحصم وكان همك هي بك همًا واحدًا، فاطر فيما هسرت لك .»

وربما كانت هذه اوصفة واحدة كهيئة للتعريف بإسلام على كما ارتصه
نفسه وارتضاه للقارئين على من أنبأه فيما هو إسلام المسلم «المطبوع»
الذي يتكرر ديمه، لأنه يعتمد فيه على وحى بصيرته وارتحال مزاجه، وإنما هو
إسلام الحكيم المجتهد الذي يرجع في الحكمه والاحتهد إلى رياضة النفس على
سنة حساك وتمحيص الفكر على سنة العماء، وإنما هو إسلام الرحمن الذي أتبع
له أن يتلمذ لربه ويتروى في حذر ربه ويصبح إمام لمفتدين من بعده

* * *



عصر الإمام

كانت المظاهرة الكبرى هي عصر «علي» زاهرة اجتماعية خاصة به دور
عصور لخلفاء من قبله ولم تكن هي حقيقتها طاهره سياسية أو حربية عسكريه
على شدة القتال فيها وغرارة الدماء التي أريقَت في حروبها

فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الإسلامية

وعصر عمر كان هو العصر الذي تم فيه إشارتها

وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الإسلامي بعد نشأة
الدولة الجديدة فبرز فيه نظام جديد على أساس انشودة المطلوبة من الأقطار
المفتوحة، وعلى أساس الولايات التي تولاهها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة
من العلية وأشباهها

أما عصر علي فكان عصرًا عجيبًا بين ما تقدمه وجاء في أعقابه أو هو لم
يكن عجيبًا لأنه حري على العصر الذي يسبقه أن يحري عليه، فلم يثبت كل
لثبوت ولم يصطرب كن الاضطرب لأنه كان بقاء جديدًا في سبين التمام
ولم يكن بقاء متداعيا فكله هدم وانهار ولا بقاء قائما مفروغا منه فكله
رسوخ واستقرار

غير ان العجيب فيه حقا أنه انقسم بين ثبوتيه واضطرابيه قسمين اثنين
متقابلين في أحدهم كل عوام الرضا عن النظام الاجتماعي ولزعبه في بقائه
وتدعيمه، وفي الآخر كل عوامل التدمير من النظام الاجتماعي والحقير لتقويضه
وتحويله

أحدهما، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي، كان قسم معاوية بن أبي
سفيان في الشام وما جاورها

والآخر، وهو قسم التدمير من النظام الاجتماعي، كان قسم علي بن أبي طالب
في الحريرة العربية بحملة أنحائها

كانت أشام بمعنى من المعاش أرضاً أموية في عهد الحاشمية فلجأ إليها أمية
حد الأمويين حين غلبه هاشم على الرعامنة وقصد إليها أباؤه متحجرين
أو مهاجرين إلى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية.

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبي سفيان أن يتولى
الإمارة والقيادة على الشام من قبر الحليفة أبي بكر الصديق، وخلفه أخوه
معاوية من قبر الحليفة عمر، فلم ير مقيماً على إمارتها بضع عشرة سنة إلى
مبايعة علي بالخلافة بعد مقتل عثمان فانتسح له من مساحة الوقت ومساحة
الرخاء محال مهمل لتأسيس لسلطان الأموي الذي لا يسد عنه منافذ من حوله، ولم
يزل مد تولاها عاملاً على إبقاء فيها واصططع الأعوان المؤيدين له في حكمها،
فلم يتوان في استرضاء رجل يصنع رضاه، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون
السواد من الأتباع والأحباب، بل كان يرضى كل من وسعه إرضاءه، وقد وسعت
ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أو ساع إليه

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قصده أقرب أساس إلى خصومه وأولاهم باحتسابه
والنفقة عليه ومنهم عقيل أخو علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد
الله بن زمعة، وعمرو بن العاص، وأساس من هذه الطبقة بين الشرفاء ودوى الأخطار
أرد عقيل من أخيه مالا يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس له
بحق، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول «إن أخى خير لى فى ديس، ومعاوية
خير لى فى ديباى» وقس على ذلك ما يصنع العرباء عن علي والمقربون من
معاوية بالنسب والرجاء.

قد همه إرضاء السواد والعامنة، كما همه إرضاء الشرفاء ودوى الأخطار «ويلغ من
إحكامه للسبسة واتقنه لها واحتد به قلوب خواصه وعوامه أن رجلاً من أهل الكوفة
دحر على بغير له إلى دمشق في حال منصرفهم عن صفين فتعلق به رحى من دمشق
فقال هذه ناقنى أخدت منى بصوفين عارتفع امرهما إلى معاوية وأقام الدمشقي خمسين
رجلاً بينة يشهدون أنها ناقته فعصى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه،
فقال لكوفي أصلحك الله إنه حمل وليس بناقة فقال معاوية هذا حكم قدمضى، ودس
إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحصره وسأله عن ثمن بعيره فدفع إليه صعبه ويره وأحسن
إليه وقال له «أبلغ علياً أنى أقاله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الباقية والحمل».

ولقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صغير الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها

فإن كان في هذه لقصاص بعصر المبالغة فهي مبالغة الفكاهة لموكلة تكبير الملامح ليراها من عرس عنها، وليست مبالغة الخلق والافتراء

وصا هي إلا سموات على هذه الوتيرة حتى اجتمع به كل متفع بالبطام الاجتماعي الجديد، رغب في تدعيمه ووقايته من نذر الخطر والزوال.

وعلى قدر هذا الدأب الشديد في اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله في انتقاء أسباب التمرد، والإخلال بالنظام، كما يسميه في هذه الأيام

فما سمعت قط صحيحة فتية إلا يبادر إليها بم يسكنها ويردها إلى طلب الاستقرار والدوام فمن أجدى معه لما أسكنه بإغداق المال عليه ومن كان من أهل الحد والإخلاص في لعبادة والرهادة فهو محتال عني إقصائه أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه في المصلحة ولا تعييه

حق بعض الزهاد على هذا الثرف الذي ستماض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صحيحة أبي در العفاري بالكبر، وطقق يطالب الأعياء بالإعفاق في سبيل الله، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأعياء ما ينفونه من تذييره أو بشيره «ويشر الذين يكتزون الذهب والعصاة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكار من بار تكوى بها حياهم وحبوبهم وظهورهم»

فأشفق معاوية من معبة هذه الصيحة وأرسل إلى أبي ذر العديار يسكنه بها إن كان ممن يسكنهم العنى عن الأعياء، فما طبع النهار حتى كانت الدناير في أيدي المعورين الذين يلوبسون بالداعية الأمين ويشكون إليه، ثم صلى معاوية الصبح وأرسل إلى الداعية رسوله الذي حمى إليه الدناير يقول له «ألق جسدك من عذاب معاوية فإنه أرسلني إلى غيرك فأخطأت بك فقال له يا بني، قل له والله ما أصبح عندنا من دنايرك دينار ولكن أخرب ثلاثة أيام حتى يجمعها» فعلم معاوية أن الرشوة هذا لا تغنى عن القسوة، وكتب إلى الخليفة أن أبا ذر أعضل به فلا طاقة له بالصبر عليه، فأتاه الإرس يسقى أبي ذر من الشام إلى

(١) مروج الذهب للسعودي، الجزء الثاني

المدينة، ثم ضافت به المدينة أيضاً فعلى منها إلى قرية من أرباصها حيث لا
بسمع له دعاء.

* * *

وصح بعبد الله بن سبأ، صاحب القوس برجعة النسي إلى الديب ووصاية على
على الخلافة، مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فأعوز، فلما ينس منه ومن ترغيبه
أو ترهيبه ضيق عليه ثم أقصاه

والتفت إلى من سماهم أهل لغته من طلاب الإصلاح والتدين فكذب في
أمورهم إلى الخليعة بعور «إبه قدم على أقوام لبست لهم عفور ولا أديان،
أصحرهم العدى، لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم العينة
وأموال أهل اسمه، والله منليهم ومختبرهم ثم فاصحهم، وينسوا بدبى يكون
أحداً إلا مع غيرهم..»

ثم أخرجهم من دمشق إلى غيرها مستريحاً منهم بالنفى والإقصاء، كنما
دمشق وحدها من بلاد المسلمين هي التي ينبغي لها أن تستريح

وهكذا تعاقبت السجون وكس سدة تريد معارضة وفرة من أسباب الرضا
والاستقرار وقبة من أسباب انقلاق والطموح إلى التغيير، حتى تحبزت به الشام عند
مبايعة عى وفيها أعظم ما يأتى في مثل ذلك العهد من دواعى السكينة واستدامة
الحال، وأقل ما يتأتى فيه من شواجر الفتنة والعصيان

* * *

أما على مفد شئت بمصادفات أن تدعكس الآية في حصته من الدولة
الإسلامية أيما انعكاس، فأوشكت أن تنعدم فيها دواعى الرضا والاستدامة،
وأوشكت أن تتم فيها شواجر الفتنة وما سممه اليوم بالإخلال بالنظام

فكان لتنافس عنده على أشده بين العصمتين الحاريتين وبين الكوفة، لا
يرصى أهل المدينة بما يرصى أهل مكة، ولا يرصى أهل الكوفة بما يرصى به
هؤلاء وهؤلاء حتى صاق به المقام في الحجاز وأوى إلى الكوفة مأوى
«المستجير من الرمضاء بالنار»

وكانت قبائل المدينة تبعس على قريش عندئذ الولاية ومناصب الدولة،
ويطرون إليهم بضررتهم إلى أقوى المستأثر بحاه لدين والدنيا وحق الخلافة
والسطوة، وهي حالة كان أحجى بالولاة أن يخفوها ويتلصقوا في إصلاحها أو
تبديلها ما استطاعوا لها من إصلاح وتبديل، ولكنهم على نقيص ذلك كانوا
بهايون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والي الكوفة «إنما
السواد يستأن لقريش»

وظهر هذ المسخط من أثره قريش في خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين
سبب الدراع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين علي وأنصاره، فقام في الجمع
رجل من عبد القيس يقول:

«يا معشر المهاجرين» أنتم أول من أجاب رسول الله ﷺ مكان لكم بدك
فصل «إني أن قال يشير إني خلافة أبي بكر «ولم تستأمروا في شيء من ذلك
فجعل الله للمسلمين في إمارته بركة ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم
تشاوروا في ذلك. فرصينا وسلمنا فلما توفي جع أمركم إلى ستة نفر فاخترتم
عثمان، وبايعتموه عن غير مشورة منا، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا، فما
الذي نقيم عليه مقاتله»

وهذا كلام رجل يدين بفصل المهاجرين ويقدمه في صدر مقاله، فكيف بكلام
الرحا من يسون هذا الفصل أو تعليلهم المناقصة على الشهادة به في معرض
الخصومة «ولعن العاقين بهذا الغيظ كانوا يثوبون إلى بعض اصبر والباحاور لو
أنهم وحدوا من يشكون إليه فيحس الإصغاء والاعتراف لهم بالحق في دعواهم،
ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلحتوبهم إلى الصمت راعمين، فلما
قال ذلك الرجل مقالته هموا بقله ساعته لولا أن حمته عشييره وصحبه ثم
وثبوا عليه في الغد فقتلوه وقتلوه معه فرابة سبعين

* * *

وكان العبيد والمواي ولأعراب المحرومون حائقين متبرسين لا يرضون عن
حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة
الإبصاف، ولقد يكون معظم المتقامين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والمواي

ولأعراب اسحرومين، فلما طولت عني بالافتصاص منهم لمقتدر عثمان قال: « كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا يملكونهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم مشاءوا فهلا ترون موصفا لقدره على شيء مما تريدون؟ ».

وقالت لسيدة عائشة رضى الله عنها «أبها الدس إن العوعاء من أهل الأمصار وأهل المياه، وعبيد هل المدينة اجتمعوا على هذا الرحن المقتنون ظلما بالأمس. والله لأصبع عثمان خير طبق الأرض أمثالهم.»

* * *

وكان مع علي حمهره القراء والحفظ وأصحاب السك والعهه والشرعية، وهم خلق كثير يعدون بالآلوف ويتعرون في احواسر واليونى، ولا يرالور كأنباء بنى سراتين مندرين متوعدين ساخطين على رب العرفين، منكبين لكل خلاف ولو بسير في إقامة أحكام الدين، لا يرصون عن الدب ولا عن رضى بها من صلابها، ولا يسمعون إلى أمر إلا أن يكون قى رأيهم وفاق لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة كما يعتقدونها. وطالما رقفوا بين علي وبين القبال؛ لأنهم لا يسحرونه، أو عن الصلح والحكم؛ لأنهم يجلئون القرآن عن قبوله. فإذا كان أجداد معاوية يسمعون الحق والباطل؛ لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين احمل والدقة فهؤلاء الأجداد انعارفون لا يسمعون إلا ما أثاروه واستوجبوه. لأنهم خرخوا في الأرض لتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر، فلا يجمعون على صاعة ولا يحاربون أو يسامون في حماعة وهم أقرب اساس في ذلك العهد إلى الحبر بلندير واسء بالتبدين والتغيير والإصحاء إلى وحي الصمير قبر دعاء الأمير

واحتمع مع علي في الحجار والكوفة كل مافس على الخلافة متصلع إليها ولو لم يحبر بطلبها مخافة من شركائه الذين يراحمونه عليها فمهم من كان يقول لعلى ببايدك عى أنا شركاؤى، ومهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله، ومهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليا باسم عثمان، تمحلا لدرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور

* * *

وقد كان أبو بكر وعمر يمسكان كبار الصحابة بالحجار ويحذران منهم أن يطلقوا في الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشحر بيدهم من البراع ما يشجر بين طلابها ثم ينصدع شمل الأمة بالتشبع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلاً

« احذر هؤلاء البعر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين استغفرت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فيياك أن تكونه، واعلم أنهم لن يرأوا منك خائعين ما خفت الله»

فلما صارت الخلافة إلى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطير حبسهم بالحجار ولهيمنة عليهم بجواره، فاستلقوا حيث ذهب بهم المهاب. وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن عوف «ورأيتم الدنيا قد أقبلت حتى تتخذوا ستور الحرير وبصائد الديباج، وحتى يألم أحدكم بالاصطجاع على الصوف الأديبي»^(١) كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان».

* * *

روى المسعودي أنه «في أيام عثمان اقتنى الصحابة اصبياع والمال، فكان لعثمان يوم قتل عند خاربه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة صبياعه بوادي القرى وحنين وغيرهم مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة، وبلغ الثمن الواحد من متروك الربير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة وكانت علة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن سحبة السراة أكثر من ذلك، وكان على مرتبط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من العجم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألف، وخلف ريد بن ثابت من الذهب والعصاة ما كان يكسر بالفتوس غير ما خلف من الأموال والضياع وبنى الربير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة والإسكندرية وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناه بالحصن والآحر والساج، وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فصاءها وحسن على أعلاها شرفات، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها

(١) منسوب إلى قريظان.

محصنة ابطاهر واباصر، وخلف يعنى بن منه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم»

* * *

هؤلاء أيضا أصبحوا فى حصة على من الدولة الإسلامية عسكرا من أقوى عناصر لقلق والنبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة، خلافا لأمثالهم فى معسكر معاوية

قالدى نعلب على اصحاب الثروب فى كل مجتمع أنهم بصر الحالة القائمة واعداء الثورة والاضطراب اسياسى أو الاجتماعى على استحصيل، ولكن هؤلاء الأغنياء حالفوا المعهود فى مجتمع على ما أصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوال الثورة والتعجير ولو فى سرائر القلوب كلما حسرتهم وبين الظهور وفى الثورة بعض محسوس، لأنهم عرفوا علت من قبل ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من لمال أو يأخذ عليهم طريق امرئ.

عرفوا مذهبهم فى حساب الولاية ومذهبهم فى حساب الخلافة، فلما كان واليا ليمس أبى على بعض الصحابة أن يركبوا، إبل الصدفة وقال لهم إنما لكم منها سهم كما للمسلمين، ثم لام العاص الذى أذن لهم أن يركبوها فى عيبته وهو منصرف لى الحج وشاعت هذه القصة، لأن ناس شكوه إلى رسول الله ﷺ، فأبكر شكواهم منه وقال «لقد علمت أنه حيش فى سبيل الله»

* * *

وبما قام عثمان بالخلافه طار عتب على عليه، لأنه أباح للعمال والولاه ما ليس بمباح فى رأيه، وفى بالعناب كل صحابى من إخوته جمع مالا واستهوته فبسة اليدخ والبراء

وليس مذهبهم واليا رلا مذهبهم حلقة بمربح أولئك الأغنياء الذين داقوا حلوة العنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه

ولم يكن فى وسع على أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك، وهو لا يشاؤه ولا حله لنفسه وقد أنكره على غيره، لأنه إباحه نظره لم يستطع أن بعض الأنظار

مهبوحة التي ثارت بعثما وابتعت علي بعده يصنع غير ما صنعه عثمان
وغير ما اثارهم عليه

فلا دعة انديا راضون مطيعون، ولا دعاة الدين راضون مطيعون، ولا انقراء
والجهلاء راضون مطيعون، وما منهم إلا من هو قلق مروع لا يسكن به سكن ولا
بدوم به قرار

وكل أولئك كانوا في حصّة على من ادولة الإسلامية، ولم يكن لمعاونة في
حصته شاحرة فتنة من هذه الشواجر، بل كان له في موضع كل وحدة منها
دعامة تمكين وتأيد.

وإن هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفي عني عن علة أخرى من علل الفساد
والشقاق تضاف إليها

وبكها مع هذا لم تستوعب تلك العن التي اصطبحت على حصّة على من الدولة
الإسلامية فقد أضيفت إليها علة أخرى، من أضيفت إليها أكثر العلل التي تبتلى
بها دولة أو حكومة، وهي اعتمادها في مواردها على غيرها.

فكانت مورد الشام هي الشام نفسها من خراج أو أنفال و تحارة ما موارد
الحجاز فقد كانت بعيدة منه ولم تدخلت في طاعته وحسنت إلى القائم بالأمر فيه
وكانت مصر والسودان من حصّة على، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيرا لتعاقب الولاة
فيها، ولم يستفد بالسودان كثيرا لتعاقب الفتن والعدوات عندها وحسبك من هذا
داعية قلق وباعث مخافة ومبطل أمان وطمأنينة

* * *

وينبغي أن نذكر أن الحيلة في هذا التقسيم قليلة، وأن الحوادث هي التي
اختارت لكل حصّة من الحصتين رعيمةا وأشبه الناس به وأقربهم إلى ولاية
أمرها و«كما تكوبوا يول عليكم» ولا محل في هذه القاعدة بحيلة أو اختيار

فمن يكن أحد أشبه بقيادة المرافق المستبقة من معاونة، ولم يكن أحد أشبه من
على بقيادة الشكوى التي تطمح بأصحابها إلى التعبد

إن شكاً أناس عليه قريش، فعلى كان يشكو منها ويضن الظنون بحقدما عنه
وبكرامها لحقه، ويقول في كتاب من كتبه إلى أخيه « ودع عنك قريشا
وتركاصهم في الصلال وتحوبهم إلى الشقاق، فإن قريشا قد أجمعت على حرب
أخيك إجماعها على حرب رسول الله ﷺ قبل اليوم. »

وإن جاءت صيحة الإصلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب الحفاظ
والقراء والنساک فعلى كان إمام أهل العلم والقراءة، وأحق من يتكلم بتفقيه أو
بفسير

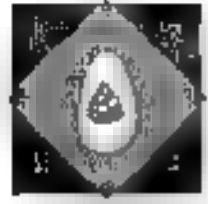
وإن جاءت من ضيم الفقراء فعلى فقير، أو من تهافت الولاة على المال فعلى
ببعض هذا التهافت كما يخصه أصعب الفقراء، عن رهد فيه لا عن قلة الوسائ
إليه.

فما شكاً شكاً قط إلا وعلى له في شكواه، وكيف سحقو رحن كهذا من قيادة
الدولة التي قامت على التبرم بأحسان والطموح إلى التغيير؟ وأية حيلة له إلى
جانب حملة الحوادث وتعميق المقادير؟

* * *

كان على نموذج أصحابه الأعلى، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى وكان
لأجل ذلك في موضع رشحتهم له الحوادث قسراً قبل أن يرشحا له بإرادة مريد
وما نحن بفاديين على وزن الرحلين ولا على المقابلة بينهما في الرأي والعمل
ما لم يستحضر هذه الحقيقة أبدأ، وما لم يذكر أبدأ أن أحدهما كان يعمل والحوادث
حرب عليه وأن الآخر كان يعمل والحوادث عدا في يديه

* * *



البيعة

يوقع لعلّى بالخلاف بعد حادثة من أجمع احداث الدامية في تاريخ الإسلام، وهي مفس لحليفه عثمان بن عفان في شخوخته الواهية بعد أن حصروه بين جدران داره، وكاد يعتنه «نظماً» لو أمهته القتل بصعده أيام

وأجمع ما كان في هذه الحادثة، أنها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد في اتقائه، لأن المسؤولين عنه كثيرون متفرقون في كل جانب يناصره أو يعاديه بعد امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء، وإذا بطل الشر الذي فيه ختير لم يبطر الشر الذي لا اختصار فيه، وربما كان حسن النية وسوء النية هنا صبيين متساويين، فمن الأعمى المؤسفة التي عجلت بالعاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه، أو لعله أعدم عليها بعد قصد ومراجعة، وليست هي في تعجيلها ولا في سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء

مصت السون الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرحى لها أن تمضى في عهد خليفة.

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعى ومن جانب الرعية، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها، وإن ظهرت عواقبها طارئات.

وتتعدد الاسباب التي أوحيت ذلك التغيير بعد السواب الأولى، ولكنها قد تنحصر في سببين اثنين حاصعين لغيرهما من الأسباب العديدة، وهما إمعان الخليفة في الشخوطة، واستمرار الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرد والمناح

ولقد كتبت الأسفار المطولات في إحصاء المآخذ على عثمان رضى الله عنه، وكتبت الأسفار المطولات في تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعداء وتفسيرها على أحسن النوحه، لأن المسألة خرجت من عداد المسائل التاريخية وانتقلت إلى ميدان الصراع بين الأحزاب والمذاهب وأقارب الجدل والحجاج.. فجعلها الشيعيون وأهل السنة ذريعة إلى تأييد مذهب وإكثار مذهب

في الحلافة والحلفاء، وروح الأولون يبالغون في الاتهام كما يبالغ الآخرون في الدفاع، ولا طائل هنا من شرح هذا وذاك، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن وإنما للمرجع به إلى تاريخ عثمان.

إلا أن جترئ هنا بالإشارة إلى التدمير الذي ثار الفتنة، والإلمام بأسبابه عند أصحابه مما لا شك فيه أنهم تدمروا لأسباب تثيرهم وإن طار الشك والحدس حول نصيبهم من الخطأ والصواب.

أهم هذه الأسباب، أنه خالف بعض السنن التي اتبعها النبي عليه السلام في الأذان والصلاة، وأنه أدنى أساساً من أقاريه كان رسول الله عليه السلام قد أفصاهم عن المدينة.. فاستدعاهم إليه بعد استخلافه وأعدق عليهم المصح والأموال وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته في إيواليه والعمالة، ومنهم من اتهموه بإقامة الصلاة وهو سكران وأنه منح سفيان بن حرب مائتي ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم روج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال، وأنه توسع في بناء القصور، وحرم بعض الصحابة، وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب إهانة وإيحاء.

ولم تنقص سنوات على هذه الحال حتى كثر المترفون من حاش والمقربون من جانب آخر، وشاع بين الحانبيين ما يشيع دائماً في أمثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء والتريد بالتهم والسجاجة، وإصافة الأوهام إلى الحقائق في خلق نزاع الخلاف والشحناء.

ويدل على خطر مسألة الثروة في هذه الفتنة، أن الناس تألبوا على الخليفة مرة فأرسل في طلب علي ليصرفهم عنه، فلما قدم إليه أسأله في إعطائهم بعض الرهد العاقل من بيت المال، فاس له فصرفوا عن رعماء الفتنة، وهذه ولي حين.

ثم توافد المتدمرون من الولايات إلى المدينة مجدين وغير مجدين. وتولى رعاية المتدمرين في بعض الأحيان جماعة من أحناء الصحابة، كتبوا صحيفة وقعوها واشهدوا فيها المسلمين على مخذ الخليفة عند حمها عمار بن ياسر إليه غضب وزيره مروان بن الحكم وقال له «إن هذا العبد الأسود قد حراً عليك الناس وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه» فصره حتى عشى على

وفى مرات أخرى، كان الخليفة يصعى إلى هذه الشكايات ويسم على ما
احتترحه أعوانه بعلمه أو بعير علمه، ثم يعبر التوبة إلى رعاياه، ويؤكد لهم الوعد
بإقصاء أولئك الأعوان وإخلافهم فى أعماهم بمن يرصى المسلمين، ويرصى الله.
ثم يعلبه أولئك الأعوان على مشبئته، فيبقيهم حيث كانتا ويملى لهم فيما
تعودوه من لترف والنكاسة، وعلى رأسهم مروان بن الحكم أبصر أولئك الأعوان
إلى المسلمين، حتى من أهل الخليفة المقربين

وكان بعض الوعود يشكون ولا تهم، فإذا عادوا إلى بلادهم تلقاهم أولئك الولاية
بالأدى وقتلوا بعضهم ضرباً على ملاً من الشكين الدين يتطرون الإنصاف
فيعود المصرويون إلى الشكوى، وينصرهم أحلاء الصحابة عند لحليفة،
ويسألونه أن يولى عيهم غير واليهم المسمى إليهم. فإذا توحه الوالى الجديد إلى
مكانه، إذا فى الطريق رسوب يحسن خطاباً للوالى المعرول، يأمره فيه بقتل من يقد
إله من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية ويقره فى مكانه

حدث هذا مع وفد مصر واختلفت الأقاويل فى تأويله من متهم للحليفة،
ومتهم لمناسيه على الخلافة، ومتهم لوفد الشكوى الذى عثر بالخصاب، ومتهم
لمروان بن الحكم . عنصر السوء فى هذه الماساة كلها وهو أولى الأقاويل
بالترحيح والتصديق، إذ كان أيسر شىء على مروان لو كان يرى من هذه المكيدة
أن يكشف حقيقتها، يسؤال الغلام حاصر الحطاب، وفى كشب هذه الحقيقة إبراء له،
وتعزيزاً لسلطان الخليفة، وفصيحة لأعدائه، وإذا حاض لحجة الفتنة، ودعوة الإثارة
والتحريض وبكاه أهمل السؤال، وفتح من نبرئة نفسه بقذف التهمة على
متهميه

* * *

وظل الخليفة والثوار يشتبكون وينحاحرون لا هم فى حرب، ولا هم فى
سلام

وكلما تصاحروا بعد اشتباك مندر باشر، راد الخليفة صعباً، وراد الثوار
صراوة، ورد السوحس بينهم استفعالا وتوسع مع التوحس محال السعاية
والإرجاف بين العريقتين حتى بلغ الكتب أجله.

وبوسط على بين الخليفة والثوار، فاسمهم الخليفة ثلاثة أيام ير فيها المطالب ويعزل العمال المكروهين

فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لصباحة على ومنهم من يسىء الظن، ويرى أن الخليفة إنما يستمهلهم في انتظار المدد الذي طلبه من الأمصار وابقصت الأيام الثلاثة على غير جدوى

وبفاقمت الفجدة وأحاط الثائرون ببیت عثمان لا يقعون في هذه الكره إلا أن يعبري، أو يسلمهم مروان بن الحكم، أو يعزلوه عنه

وحاء في رواية «شداد بن أوس» أن علياً رضى الله عنه، خرج من منزله يومئذ معتماً بعمامة رسول الله متقلداً سيفه أمامة الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه عليٌّ وقال بعد تمهيد وحيز « لا أرى القوم إلا قاتلك، فمرنا فيقتل ». فقال الخليفة «أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً، وأقرأ أن لي عليه حقاً، ن يهريق في سببي ماء محجمة من دم أو يهريق دمه في» فأعاد على القول، فأعاد عليه هذا الحوار ثم خرج من عنده إلى المسجد وحضرت الصلاة فنادوه «يا أبا الحسن تقدم فصل بالناس» فقال «لا أصي بكم والإمام محصور، ولكني أصلي وحدي»، ثم صلى وحده وانصرف إلى منزله، وترك لسيده مع أبناء زمرة من الصحابة في حراسة دار الخليفة، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذي خطر في الإسلام إن وصلوا إلى الخليفة باعتداء عساهم إن علموا ذلك أن يتهيبوا المركب، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه

إلا أن لثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاوله فسوروا الدار وولغوا في دم طهر لوهان على صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله لعر عليهم أن يسفكوه

* * *

وللإحاطة في مقتل عثمان وعيره هذا المقص، مكان غير هذه المكان، وكتاب غير هذا الكتاب

فإنما نحن في صدد الموقف الذي وقفه على من هذه الجريمة، وما يعم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريته وجهره وإنما يعيننا هنا أن نسأل أكن عليه وير في هذه الجريمة؟ أكن في مقدوره عمل صالح يعمل لإيقاد عثمان من هذا المصير؟

وبنح لا نسا هذا السؤال نرحع في حوبه إلى حدل المحادلين وأقاصيص المادحين والقادحين. فقد سال في الخلاف على هذا السؤال دم عرب ومداد كثير، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا لبحر المسجور الذي لا رى فبه ليس علينا هذا لأننا نستطيع أن نعبه إلى حفيقة ماثلة لم يشاء أن يراها، وفيها الفنى ولر بعض العنى. عن الإسهاب في السؤال والجواب

عالحقيقة التي لا بطور فيها الريب، أن علينا رصى الله عنه بم يكن أقدر على احقبات هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه، لو شاء عثمان أن يستمع إلى بعض الناصحين إليه.

فقد كان معاوية والياً عريزاً، له حد يرسله إلى الخليفة فيحميه في الشدة اللارمة وإن أباه، وكان بمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعل ولا لأحد من خلصائه، وكان هو أقمن أن يميل بعثمان إلى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة إلى مكة أو الشام، لو أراد

وكن في وسع عثمان أن يرحل إلى مكة، وهى من له مر المدينة، أو يرحل إلى الشام، وقد كانت مفتوحة له قبل أن تعلقها لفتنة ويمرد الثوار في الحصان أما على فقد كان موقعه أصعب موقف متخبله العقل في تلك الأزمة المحفوفة بالمصعب من كل جانب

كان عليه أن يكبح الفرس عن انمح، وكان عليه أن يرفع العقبات واحواحر من طريق العرس. كلما حيل بينها وبين الاطلاق.

كان باقاً، لسياسة عثمان وبطاسته التي حبته عن قلوب رعاياه باصحا للحليفه بإقصاء تلك البطانة، وتبدين اسياسة التي تربها له وتعره باتباعها وصم الأذان عن الناصحين له بالإقلاع عنها

وكان مع هذا أول من يطالب بالعدو، كلما هجم الثوار على تلك العتلة،
وهموا بإقصائها عنوة من جوار الحليفة

كان الثوار بحسبونه أول مسئول عن اسعى فى الإصلاح، وكان اخيفه
بحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدي الثوار

ولم يكن فى العالم الإسلامى كله رجل آخر يعانى مثل هذه المعصلة التى
تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها، ولا خلاص!

وصاعف هـ الحرج الشديد الذى كان يلقاه فى كل خطوة من خطواته، أنه لم
يكن بموضع الحظوة والقبول عند اخبئة حيثما رجب، لإصعاء إلى رأى والعص
بالمشورة، وبما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأولى بين المقربين إليه.
لا ينحر من إحدى جناباته التى كان يحسبها على الحكومة وابعية حتى يعود إلى
انضيعة بموضع مـ روعه أن على وخواه من حلة اصحابه هم الساعون بين
اناس بالكبد له وتأيب الثائرين عليه، وإنه لا أمان له إلا أن يوقع بهم ويعرض
عهم وينتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه ومن هم أحق البس بسلطانه
وَصَدَقَهُمْ رَغْبَةً فِي دَوَامِهِ

ففى المؤتمر الذى جمعه الحليفة لتشااور فى إصلاح الأمر وقمع الفسنة، لم يكن
على مدعوا ولا منظوراً إليه بعين البقة وامودة. من كان المدعوون إلى المؤتمر من
أعدائه والكارهين لصحة. وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبى سرح
وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص، وهم فى حملتهم أولئك الولاة لدس شكاهم
على وحمهرة الصلبة، وجرمت بهم صدور المهخرين والأنصار

قدس بهم عثمان «إن لكل امرئ وراءه وبصحاء، وإبكم وزرائى وبصحائى
وأهل ثقتى، وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وظلنوا إلى أن أعز عمالى، و أن أرحع
عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون فاحتهدوا رأيكم وأسيروا على»

قال معاوية «أرى لك يا أمير المؤمنين أن تترك عمالك على تكفاية لما قبلهم،
وأن صامر لك ما قبلى»

رأى رحر يريد أن يحتفظ بولايته ولا يريد أن يغصب أحدا من أصحاب
الولايات فى غير مصره.

وقال عبد الله بن عامر «رأيتك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بحهاد يشعلهم عندك، وأن تحمهرهم في المعاري حتى يدنوا بك فلا تكون همّة أحدهم إلا نفسه»

رأى رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يزيلها، ثم هو لا يبالى أن يخلق جهاداً تسفك فيه الدماء في غير جهاد مطلب

وقال عبد الله بن سعد «أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال تعطاه عليك قلوبهم»

رأى رجل يشترى الرضا بالرشوة، ويستبقى ما في يديه منها

وقال عمرو بن العاص، وهو بين السخط على ولاية قاضها والطمع في ولاية يرحوه «أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعترم أن تعذل فإن أبيت، فاعترم أن تعتزل. فإن أبيت، فاعترم وامض قدماً»

رأى رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار، ولهذا بقي حتى تفرق المجتمعون. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره «والله يا أمير المؤمنين لأنت أعر عليّ من ذلك ولكني قد علمت أن سيلع الناس قلوب كل رحل منا، فأردت أن يبلغهم قولي فينقوا بي فأقول إليك خيراً وأدفع عندك شراً»

* * *

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلازمه ويكفل بهم أن يحجب النصحاء عنه، وفي مقدمتهم علي وإخوانه. ثم تعرفوا المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل إلى عمله، وأمره بالتصديق على من قبله

فكانت حيلة علي في تلك المعصلة العصبية حد قبيله، وكان الحول الذي في يديه أقل من الحيلة

غير أنه مع هذا قد صبح غامة ما يصعبه رحل معلق بالنقيصين، معصوب بالتبعيتين، مسئول عن الخليفة أمام لثوار ومسنون عن لثوار أمام الخليفة

حائه النوار مرة من مصر خاصة، يتحطون الخليفة إليه ويعرضون الخلافة عليه فلقبهم أسوأ لقاء، وأسروهم لئن عادوا إليها ليكوس حروهم عنده وعند الخليفة القائم، حزاء العصاة المفسدين على الأرض

وجاءوه مرة أخرى وحثهم بالهبة، ودبيل الذهبة التي يتهمون بها بطانة عثمان في أنديةهم حاءوه بالحصار الذي وحدوه في طريق مصر مع غلام عثمان، يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً وأجابهم إلى توبة العامل الذي يرصيه، فلم تحده حجتهم بالهبة، ولم يشأ أن يمسى لهم في ثورتهم وحتجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه، وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين، فقال لهم «وما الذي جمعكم في طريق واحد، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم إلى وجهة»

* * *

وكانت حيرة على بين التقريب والإبعاد، أشد من حيرت بين الخليفة والثور فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكب الناس عن الهدف باسمه ويستدعى إليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة، فما تكرر ذلك، قل لابس عباس الذي حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله في يجمع «يا ابن عباس ما يريد عثمان إلا أن يصحني حملاً بالصحة بالعرب - أي الدار - أقبل وأبر. بعث إلى أن أخرج، ثم بعث إلى أن أقدم ثم هو الآن يبعث إلى أن أخرج والله لقد دعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً»

ثم بلغ لسير الزبي، كما قال عثمان رضى الله عنه، فكتب إلى على يذكر له ذلك ويقول: «إن أمر الناس ارتفع في شأني فوق قدره وورعوا أنهم لا يرجعون بون دمي، وطمع في من لا يدمع عن نفسه

فإن كنت مأكولاً فكى خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمرق

فعاد على، وحهد في إنقاذ الخليفة جهده، ولكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلى به أطباؤه فكلهم يريد تغييراً يأتي من قبل لغيب أو يأتي من فس الآخرين، ولا يعير شيئاً من عمله أو مستناعه، ولعل لخليفة لو شرع في التغيير امرجو يومئذ ما أجدى عليه عظيم حدوى، لغوات أوانه وإسقاط العنتة من أعنته، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وفر في نفوس ولغطت به الأفواه

وعد الخليفة وعده الاخير ليصلح الأحوال ويدل العمال
وأحاطت به بطائنه كدأبها في أثر كل وعد من هذه الوعود، تنهاه أن ينحرفه
وتحيفه من طمع الناس فيه، إن هو أنحر ما وعدهم حين توعدوه

وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال في هذه العاشية اتى تضل فيها العقول.
مأشارت عليه امرأته السيدة مائلة باسترضاء على والإعراض عن هذه البطانة،
ولم يكن أيسر على بطائنه من إقناعه بضعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة
ضعيفة، فكان مروان يقول له «والله لإقامة على حطينة تستعير الله منها أجمل
من قوبة تخوف عليها»

وكان هو يأذن له أن يحرج ليكلم الناس، فلا يكلمهم إلا بالزحر والإصرار
كما قال لهم يوماً «ما شأكم قد اجتمعتم كأنكم حنتم لنهب، شأنت الوجوه
حنتم تريدون أن تزرعوا ملكنا ارجعوا إلى مدارلكم، فإب والله ما نحن مغلوبين
على ما هي أيدينا»

إذن سظلت الروية، ولم يبق إلا لحظة طيش لا يدري كيف تبدأ، ولا يؤتى لأحد
إذا هي بدأت أن يقف دون منتهاه

* * *

هجم النوار على باب الخليفة، فسمعهم الحسن بن علي وابن الربيع ومحمد بن
طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة

واجتلدوا فسمعهم عثمان، وقال لهم «أنتم في حل من نصرتي» وفتح الباب
ليسمع الحلال حوّه ثم قام رجل من أسلم يباشد عثمان أن يعتزل، فرماه كثير بن
الصلت الكندي بسهم فقتله، فحز حشور الثوار يطلبون القتل من عثمان، وعثمان
فيأبى أن يسلمه ويقول بهم «لم أكن لأقتل رجلاً نصرى وأنتم تريدون قتلي»
وعز على الثوار أن يدخلوا من لياب الذي كان قد أعلو بعد فتحه، فاقتمعوا الدار
من الدور التي حولها واقدموا على فعلتهم النكراء بعد إحكام كثير

بوم تقع الواقعة في هذه اللحظة الطائشة، لوقعت في لحظة غيرها لا يدري
كيف تبدأ هي الأخرى وإنما هي بادرة واحدة من رحى واحد تسوق وراءها كل

مجمع حول الدار من المهاجرين أو المدافعين، ولا أكثر من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأي، ومدافعين لا يضبطهم عنان

ونقل الخبر إلى المسجد، وفيه على جالس في نحو عشرة من المصلين، فراه منظر انقادم وسأله «ويحك ما وراءك؟» قال «والله قد فرغ من الرجل» فصاح به «تباً لكم آخر الدهر» وأسرع إلى دار الخليفة امقتون. فلطم الحس، وضرب الحسين، وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه «كيف قتل أمير المؤمنين، وأنتما على الباب؟» فأجاب طلحة «لا تصرب يا أبا الحس ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع مروان ما قتل»

* * *

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه «بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، وأميرها النخاعي بن حرب، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر، والمصريون يلحون على علي وهو يهرب إلى الحبطان^(١) ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، والمصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم، فقالوا فيما بينهم لا نولي أحدا من هؤلاء الثلاثة فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص فقالوا إنك من أهل الشورى فلم يقبل منهم، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم، فحاروا في أمرهم ثم قالوا إن نحن رجعنا إلى أمصارنا يقتل عثمان من غير إمرة اختف الناس في أمرهم ولم نسلم فرجعوا إلى علي فألحوا عليه، وأخذ الأشتري بيده وبايعه وبايعه أساس. وكلهم يقول لا يصح لها إلا علي، فما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر، وبايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده السلام. فقال قائل «يا لله وبإلهه رجعون»، ثم الزبير ثم قار الزبير «يا بايعت علي واللعن عني عنقي والسلام».

وهذا الخبر على وجارته، قد حصرنا أسماء جميع المرشحين للحلافة بالمدينة عند مقتل عثمان. وربما كان أشدهم طلب لها طلحة والزبير، اللذان أعليا الحرب على علي بعد ذلك فقد كانا يمهدان لها في حياة عثمان، ويحسبان أن قريشا قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمي، وأن علياً وشيك أن يذار عنها بعد عثمان كم ديد عنها من قبله، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تقول اخلافة إلى

(١) البساتين.

واحد من هذين، أو إلى عبد الله بن الزبير، لأن صحة من قبله تم والزبير روح
أختها أسماء، وفي تأسد السيدة عائشة لواحد منهما مسعاة أمل كبير في النجاح
على أن الرأي هذا لم يكن رأي قريش، ولا رأي بني هاشم، ولو أن عثمان مات
حتف أمه، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجار أن تجتمع قريش فتعقد البيعة
لخليفة غير علي بن أبي طالب، وجاز أن يختلف بنو هاشم فلا يجتمع لهم رأي
على رحى من رجالهم الثلاثة امريشحين للخلافة، وهم عقيل، وعلي، وابن عباس

* * *

ولكنها الثورة الاجتماعية التي تنشد رجلها دون غيره ولا محيد بها عنه فإن
ترددت أيام فذاك هو التردد العارض الذي يرد على الخاطر لا محالة، قبل استراق
على رأي حازم. ثم لا معدل لثورة عن الرجل الذي تنحى إليه وحده على الرغم منها
عطلة والزبير، كما يشبهان عثمان في كثير مما أخذه عليه المتحرجون في
الدين، ونمرد له الفقراء المحرومون كما يحوصان في الماء، ولا يفهمان الزهد
والعلم على سنة السابقين المترمتين، فإذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم
ووافق رحائهم فما هم بواحدية في غير علي بن أبي طالب، وقد كان بحق «إن
العمامة لم تباعى لسطان عاب ولا لعرض حاصر» ولو شاء لقال عن الخاصة
الدير لا يطمعون في الخلافة مقالته عن العمامة في «يقبدهم إليه بغير رهبة ولا
رعبة فقد كان أولئك الخاصة حميماً على رأى العمامة في حكومة عثمان
وبطاسته، وإن أخفى بعضهم لومه ولم يذهب بعضهم في اللوم مذهب الثوار في
الفرق وسفك الدماء

رعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هي أولى الحقائق بالتوكيد والاستحسان،
كلما عررض أمر من أمور الخلاف والتردد في خلافة على رضى الله عنه فإن هي
فهمت على وجهها، بكل ما عداها مفهوم اليوطين والظواهر مسوق الموارد
والمصادر وإذا هي لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانباً، ويحث الباحثون
عن العلل والعواقب في غير ما لعهد كنه غامض مجهول، والموارين كلها
منفوسة سواء في تقدير الرجل أو تقدير الأعمال، وجار حسنة أن يرمى على
بالخطأ ولا خطأ عنده يصححه غيره في موضعه وإنما هو حكم الموقف الذي

لا محيد عنه وحرار كذالك أن يحل خصمه فصل الصواب ولا صواب عندهم،
لأنهم مضطرون إلى ورود هذا المورد. فكروا فيه أو طرّفوه عتسفاً بغير تفكير

* * *

فلم تكن المسألة خلافاً بين على ومعاوية على شيء واحد، ينحسم فيه النزاع
بانتصار هذا أو ذاك

ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين أحدهما يتمرّد
ولا يستقر، والآخر يقبل الحكومة كما استحدثت ويميل إليها إلى ابقاء والاستقرار
أو هي كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت في على بن أبي طالب،
والدولة الدنيوية كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر على فيحكم في مكان معاوية، أو ينتصر
معاوية فيحكم في مكان على، بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون
إدا تعب واحد منهما على خصمه؟ أ تكون مبادئ الخلافة الدينية أو مبادئ الدولة
الدنيوية؟ أ تكون مبادئ الورع والزهادة أو مبادئ الحياة على أساس الثروة
الحديثة، كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بين السراة والأجداد والأعوان؟

فلو أن علياً ملك الشام ومصر والعراق والحجاز، وجرى في سياستها على سنة
أصحابه من الحفاظ والقراء ومكرى البدخ والإسراف ليقيت المشكلة حيث كانت،
ولم تكن هزيمة معاوية لا ديثماً يتحدر للدولة مبارخ آخر يحاول الغلبة من حيث
فش معاوية

ولو أن معاوية ملك المدسة إلى جانب ملكه، وجرى في سياستها على سنة
الحفاظ والقراء لما أرساهم ولا انتقاد له أحد من أشياعه

فالحسم حق الحسم هنا، إنما هو تعليل مبادئ الخلافة ولا حيلة لعلى ولا
لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه، لو جهد له جهد الطاقة

* * *

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبساً متشابكاً في عهد عثمان كن
نصف ملك ونصف خلافة، أو كان نصف رعاية دينية ونصف إمارة دنيوية.

فوحب أولاً أن يتصح الموقف بينهما، وأن يرول الالتباس عن فلق صريح
ووحب وقد رار الالتباس، وتقابل الصدور اللذان لا يتفقان، أن يبيع الخلاف
مداه - ولر يرال قائماً حتى تكتب العيبة لمدأ من المدأين وحكم من الحكيم،
وليس لعل أو معاوية على التخصيص

هذه هي العلة الكبرى التي تطوى فيها جميع العلل الطاهرة
وخلق بكر عله أخرى أن تكون تعلقة موضوعه بظهر صاحبها غير ما يبطن،
أو يخذع في زعمه وهو غافل عن معناه

خذ لذلك مثلاً علة طححة وأصحابه الذين ثارو على عى ليطبوه بدم عثمان، وهم
لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع على عنه وقد كان عثمان كثيراً ما يقول «ويى
من طلحة أعصيته كذا وكذا ذهباً وهو يروم دمي اللهم لا تمتعه به ولفه عراف بعينه»
وساء ظن الناس بقيمة طلحه على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم
مقتله يرمى أسار، ويقود بعض الثائرين إلى الدور المحاورة ليهبطوا منها إلى دار
عثمان، وهو حديث يفتر إلى السند الوثيق، ولكنه ينم على ض الناس بصدقة
طلحة للخليفة المقتول

وخذ لذلك مثلاً حجة معاوية حين علل ثورته باتهام على في دم عثمان، وعلل
اتهامه لعى بتقصيره في القود من الثائرين - وهم ألوف يحملون السلاح، وهو لم
يسكر بعد إلى سبطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين، فماداً صنع
معاوية بقاتلى عثمان حين صار امك إليه، ووحب عليه أن ينفذ العقاب الذي من
أجبه ثار واستباح القتال؟ إنه اتبع عيلاً فيما صنع، وأبى أن يتكر الثأر لمقيم
المفعد، وقد ذكره به وألحقوا في تذكيره، ولقد كان أول ما سمعه يوم رار المدينة
ودخل بيت عثمان صيحة عائشه بنته وهي تبكى «و أنتاه» فلم يزد هذه
الصيحة المثيرة إلا إصراراً على الإغصاء والإعفاء، وقال لها يعريها «يا سة
أحى إن الناس أعطوا طاعة وأعطياهم أماناً، وأطهرها لهم حليماً تحت عصب،
وأظهروا لها صاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره فإن
مكثنا بهم نكثوا بنا، ولا بدري أعلياً تكون أم لنا ولا أن تكونى بنت عم أمير
المؤمنين خير من أن تكونى مرة من عرص المسلمين»

ولو كانت الثورة كلها من أحر عثمان لما انتهت بهذا التسليم الهين. ولكن
عذر على هي بداية المحنة أعظم حجة وأحق بالقبول

* * *

أو حذ لك مثلاً علة عمرو بن العاص وقد كان أول الناصحين لعثمان
بالاعتراض، بل كان يحطب عثمان ليستترصى الناس، وعمرر يصيح به من صغوف
المسجد. «تق الله يا عثمان، فبك قد ركبت أموراً وركبناها معك. فتب إلى الله
نتب.» ثم ترك عثمان هي المدينة بين أنموتمرين به ومصى إلى فلسطين، وسمع
وهو يقول «والله إني كنت لألقى براعى فأحرصه على عثمان»

فكل علة للثورة على خلافة علي، فهي تعزل موضوع يخضع به قائله أو
يخضع به غيره. إلا تلك العلة التي طوت منها جميع العلل ظاهرها وخفيها
وصريحها ومكدوبها، وهي الخلاف بين مبادئ الخلافة الدينية ومبادئ الدولة
الدنيوية وضرورة انفص بين هاتين الحطتين. وإن كان هي ظاهره فصلاً بين
رحسين

فلما بويغ على بالخلافة، كانت هذه الببعة إيداناً بانقسام الحقبة بين الندين
للصراع الأخير، أو كانت إيداناً باصطفاف المتسابقين إلى غاية لابد من بلوغها
ولن تخطر على ابال غاية لهذه السباق لمحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك
على النحو الذي تهيأ به عناصر النظام الاجتماعى الجديد
فأما انتهاء الملك فى بدايته، فقد كان بعيداً. بل كان عسيراً جداً فى تلك الاونه
كما يحسر اطفاء النار وهي تهب بالاشتعال

وأما اسهاء الخلافة فهو الذى كن، وهو الذى كان منظوراً أن يكون، ولن يكون
غيره بمنصور فمن الفصول يوم عى على شىء من لأشياء نتي أفصت إلى هذه
الخانعة، وهي محتومة نيس عنها محيد

إدلم يكن طبيعياً أن يصمد الناس على سئة النبوة أكثر من جيل واحد، تنوب
بعده الطبائع إلى فطرتها من نشأة الخليقة الأولى، وقد يتفق كثيراً أن يغمرها
حلال النبوة أو حلال الخلافة النبوية، وهي فى إبار العصار والحمية الدينية،
متنسى المطامع وتسهب عن احرارات وتستعبد الألم ولعداء إلى مدى الطاقة

الإسبانية، ولكنها تطلع مدى الطاعة لإسبانية بعد حين وتفر عن النهوض من قمة إلى قمة فتتركز آخر الأمر إلى الأرض السواء حيث لا حائر ولا مستهص، إلا محارة الطبيعة في محاريها التي لا نشق عنها، وإن المصلحين ليرصون عية الرضا إيا هي حفست من إصلاحهم عند ذلك وارعاً يهدبها بعد صلاة عمياء، ويردعها بعد حمام مريد، ويكفكف من عوائها ما كان من قبل منصفها بغير عار.

وفد نظر النبي عليه السلام بعين العيب إلى هذا المصير فقال «الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك». وأنبأ بانقسام الفرق وتشعب الأهواء، وكأما ينظر إلى ذلك يعينه صلوات الله عليه

* * *

وتبع على من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها، فلا يعرف سياسة أخرى أشار بها باقده أو مؤرخوه بم أقاموا الدليل على أنها خير من سياسته في صدق أسراى وأمن العاقبة، أو أنها كانت كفيلة باجتباب المآرق التي ساقته الحوادث إليها

فمن اللخصة الأولى، أخذ في تحييد قوى الخلافة لدنية التي لا قوة له بغيرهم فعزز الولاة الذين استباحوا العنائم المحظورة، ونمرعوا بالديار، وطمعوا وأصمعو رعاياهم في بيت مال المسلمين، وأثاروا على عثمان سطح السواد وسخط لفقهاء المتحريين والحفاظ بغورين على فصائل الدين.

ورد القطائع التي ورعتها بطنة عثمان بين المقربين ودوى الرحم فصرفتها عن وحوها التي جعلت لها من إصلاح المرافق وإعائه استقرين إنها على شرعة الإصاف ولمساواة

ورجع إلى خطة أسى بكر، عمر في تحييد الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتنة ابولايات، مخافة عليهم من عوائتها رابعاً لهم من دسائس الشيع والعصيات. فلما طالبه طلحة والربير بولاية العراق وايمى، قال لهما «س تنقسان معى لأس يكمن» وسأل «بن عباس. «ما ترى؟» فأشار بتولية الزبير لبصرة وتولية طلحة الكوفة قال على «ويحك إن العراقيين بهما الرجاى و لأموار ومنى تملكارقان

الناس بسبب ميلان السفية بالطمع وبصر بان الصعيف بالبلاء، ويقويان على القوى بالسلطان، ولو كنت مستعملاً أحد نصره أو نفعه لاستعملت معاويه على الشام ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية كان لى فيهما رأى»

نعم، إن هذه السياسة أعضبت مدافسيه وطالبي المنفعة الدنيوية على يديه ولكن السياسة الأخرى كانت تغصب أنصاره ولا تصمر رضا المنافسين ودوامهم على الرضا و بوعاق بينهم في تأييده وكانت تخالف عقيدته التي يبين بها نفسه وأقرب الناس إليه، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه وإن يكون مالكا غالبا بسياسة الملك على كل حال، فإن لم يكن خليفة فما هو بشيء وإن كان خليفة وملكا فهي حطة عثمان أتى لم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف، وإن كان خليفة ولا اختبار به في ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كأحسن ما تراص له الحكمة، وهو السداد كأقرب ما يتاح له السداد.

وعلم أن قريش لا يصبرونه، فنقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة لأن قريشا كانوا شاميين وهم لا ينفقون على بيعته وقد تركه أقربهم إليه ورحل إلى معاوية طمعا في رده، أو كانوا أمويين وهم حرب معاوية وأهل عشيرته وبنته، أو من تيم وهم حرب طلحة، أو من عدى وهم يؤنزون عند الله بن عمر بن الخطاب، أو من قبائل أخرى، وهم كف قال «قد هربوا إلى الأثرة» فإذا أقام بينهم فهو مقبم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يضمن لهم ولاء

• • •

ولم يمس أنام معدوده على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحصار كله به أو عليه فكس معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان، وجميع الطامعين في الانسحاق بالولاية والأموال العامة وحالب الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه

وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير

فحشدوا جموعهم إلى البصرة، وصحبتهم السدود عاتشة لأنها كانت ترعب في خلافة طلحة. لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من

قصر عثمان، ولما يرل قائما بالخلافه، فعالت له يا بن عباس أشدك الله عليك
قد أعطيت لساب رعيلا - أي ماصبا - أن تخس عن هذا الرجز تعبي عثمان
وس تشكك فيه الناس فقد بات لهم بصائرهم وأنهت ورهعت لهم المصار
وتجنبوا من البلدان لأمر قد جم وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتحد على بيوت
الأموال والحزائن مفاسيح فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر رضى الله عنه
عاجبها ابن عباس «يأمره لو حدث ما هرع الناس إلا إلى صاحبها» أي على
فقال «إيها عنك. إني لست أريد مكابرتك ولا محادلتك».

عما يبيع على في المدينة لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه
وبين خصومه. ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبى عليه السلام في مسألة الإفك
التي قيس إبه أشار فيها بتطليقها فحرحت إلى البصرة مع المطالبين بثار عثمان،
وكانت هناك وقعة الحمل التي سُميت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول
حملها وهودحها فانصر على، وقتل الزبير، ومات طلحة بجرح أصابه في
المعركة، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين في الحار والعراق.

على أن هذا النصر العاجل، لم يخل من أفة تكدره وتدر بالمخاوف التي يوشك
أن يلقاها على في حربه بخصومه الباقين بعد موت طلحة والزبير وأقروهم
معاوية بن أبي سفيان صاحب الشام.

فقد كشفت وقعه لحمل عن مصاعب القيادة في حيش من المتمردين
والمتذمرين فإنهم يستحمسون في عقبتهم، وهي فصيلة من فصائل الجيوش
المقاتلة، ولكنهم من حراء هذه الحماسة نفسها عرصة للعار والتمادي في اللد
وإعجال قاتلهم عن إنعام الروية وانتظر الفرص المؤاتية

فقد كان على يميل كدأبه - إلى مفاتحة الخارجين عليه في المهادنة أو
المصالحة، وكان معه جماعة السبئية أتباع عبد الله بن سبأ وهم أخلص
الناس له وأعيرهم عليه، ولكنهم لفرط غيبتهم ولددتهم في عداوتهم لم يقنعوا بما
دون القصاء على خصومه، ولم يعبوا التوسط في الصلح دون العلبة التي لا هودة
فيها فدهموا القوم وأوقدوا حذوة الحرب، قبل أن يفرغ على من حدث المهادنة
والنقريب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه

وكانت هذه أولى العبرات الكبار التي أعثرته بها حماسة المتمردين
والمتدمرين في جيشه، ولم ترس منعاقب وتتفاقم عليه حتى منى بالعبثرة التي
لا تقار.

وكان ذلك في وقعة صفين

فيه نظر بعد علمه في العراق، فلم يجد أمامه خصما يقف في طريق الخلافة
إلا جيش معاوية بالشام، فعمد معه إلى خطته التي جرى عليها مع خصومه كما
حيث كانوا وكانت منزلتهم من الحياه والقوة، ويعني بها خطة المساومة والبدء
بالإقناع فطالت الرسالة منه إلى معاوية، ومن معاوية إليه، وفي مثل واحد
منها ما يعنى عن كثير

كتب إلى معاوية بعد وقعة الحمل، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة «سلام
عليك أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لرمثك وأنت بالشام، لأنه بيعتي الدين
بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما سويوا عليه فلم يكن للشاهد أن يحتار،
ولا للعائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا حتموا على رخص
وسموه إمام كان ذلك له رضى، وإن خرج عن أمرهم ردوه إلى ما خرج عنه، فإن
أبى قتلوه على أتبعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ماتولى، وصلاح جهنم
وساء مصيرها وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نفصا بيعتهما، وكان بقصهما
كرههما، فحاهدتهما بعد ما عذرت إليهما، حتى جاء الحق وظهر أمر الله، وهم
كارهون فادخ فإما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إلى قومك العافية،
وقد أكثر في فتنة عثمان، فإن رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه
المسلمون ثم حاكمت العوم إلى حملتك وإياهم على كتاب الله وأما تلك التي
تريدها - يعنى الخلافة - فهي خدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لمن نظرت بعقلك
نور هوك بتجدى أرا قريش من دم عثمان وأعم أنك من الطلقاء الذين لا تحص
لهم اخلافة ولا يدخلون في اشورى وقد بعثت إليك وإلى من قبلك حرير بن عبد
الله، وهو من أهل الايمان والهدى فبعبه ولا قوة إلا بالله»

ورد عليه معاوية بما يلي

(١) أطلق معاوية وأبوه من الأسر يوم فتح مكة

«سلام عليك.. أما بعد، فلعمري لو بايعك الدين ذكرت رأيت برئء من دم عثمان، لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان وبكك أغرمت بدم عثمان وخذلت الأنصار، فأطعك الحاهل وقوى بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام، لا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين. وإما كان الحجاريون هم الحكام على الناس ولحق فيهم، فلما فارقوه كل الحكام على الذس أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير، إن كانا بايعاك فلم أبيعك أنا وأما فضلك في الإسلام وقربتك من رسول الله ﷺ فليست أدفعه».

ومن رد معاوية هذا، تبدو الحجة الواضحة في فتح أبواب الخلاف واحدا بعد واحد. كلما أغلق باب منها بقي من ورائه باب مفتوح، لا ينتهي الخلاف بإغلاقه. فتسليم قتلة عثمان لا يكفي، لأن عيب نفسه متهم بالإعراء والتحريض، وبراءة علي من هذه التهمة لا تكفي لأن المرجع بعد ذلك إلى الشورى والخطرفى البيعة من جديد.

وشورى لحجاريين وأعرابيين لا تكفي لأن الحق قد خرج منهم إلى أهل الشام، وهم الحكام على الناس لأنهم يحكمون لمعاوية ولا يحكمون لغيره.

ومن ثم، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقاس باللسان غير ما يجوز في الصدور.

وزحف علي من الكوفة إلى صفين، ووجد جيش معاوية على الماء.. فبحاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن يدحيه بغير قتال.

وحدثت اعثرات من ثم في كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتال، فلا يتحفظ فريق من أنصاره للحرب حتى يشبه فريق آخر يحرمها ولا يقرب بوجوبها، وتحتاج القوم فيها وثمانين فرقة وتصابون في وقعتات شتى عامرت بها طائفة من هذا وطائفة من هذا، وقلما اشتبك فيها الجيشان في رقعة جامعة حتى كانت رقعة الهرير، وحاقت الهريمة بجيش معاوية وقيل إنه هم بالفرار وإذا بالمصاحف ترفع على أحزاب من قبل جيش الشام، وإذا بالعثرة الكبرى التي لا خطوة بعدها في طريق فلاح فإن علياً بطرح حوله فإذا بجيشه يوشك أن يقتتل فيما بينه براعا على القتال أو إلقاء السلاح، وإن معاوية يعي عن كهاج قوم

لا يتفقون على كفاحه فله منهم سيوف مشرعة لبصرته، شاعوا أو لم يشاعوا ،
وسيكفونه ماثوبة الحرب حتى يذفقوا بسهم على حربه، رهيبات

* * *

ولو كانت آفة الطاعة في جيش على، مقصورة على ائنهاء القراء والحفاظ،
وبعزل الغلاة والمتمردين لكأن في ذلك وحده ما يكفي لإفساد التدبير
واضطراب القيادة وتعدر القتال على أصوله، إذ لا يستغنى القائد في ميدان
الحرب، ولا في ميدان السياسة، عن الكتمان والمفاحاة وتحويس الخطط على حسب
انطوائى والمسابب.. فإذا كان في كل عمل من أعماله عرصة لاحتهااد أصحاب
الفتاوى، وكان أصحاب الفتاوى يعترفون عشرين رجة في كل حركة من
حركات الجيش، فليست له خطة تكتم ولا سطة تنفذ وليس عحيبا بعد ذلك، أن
ينهرم في ميدان القتال شرمزامة يبتلى بها مقاتل. بل العحيب أن يتماسك فترة
من الزمن - وإن قصرت - أمام جيش يفوقه في العدد ويرجع في أمره إلى قيادة
موحدة وبية محتمة ومشينة مطاعة

ولكن الافة مع هذا، لم تكن كلها في احتهااد الحفاظ وتعنح الغلاة بل كان
في الجيش أساس يحرمون عهده ويشعبون عليه، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون
بعده كارهون لانصاره فإن لم يكونوا كذلك فالأمر الذي لاشك فيه أنهم كانوا
بعمليهم - وهم عامدون وعير عامدين - شرم ما يعملنه الحائر الخبيث لدى يتحين
الفرص للعباد والشقاق، وإفشاء الجلل والخذلال في أخرج الأوقات

وأدهى من ذلك أنه لم يكن قادرا على زحرمم والتككيل بهم. لأن الجيش الذي
بوجد فيه من يحرم حرب العدو، لن بعدم أساس يحرمون حرب البصير المقيم على
طاهر الطاعة، وليس لك بيئة قاطعة عليه

ومثل من ذلك أئصب يعنى عن أمثال كثيره، وهو مثل الأشعث بن فيس أكبر
سادات كندة وأخلفهم أن يبصر حزبا على حرب، بو خصصت بيته وورثت شيمته
من انتقلب والغدر بأصحابه

طمع هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبى عليه اسلام، فدعا قومه أن يتوجهه
وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر في حصنه أمامه، ويئس من العبة

فاستسلم على أن بصرى دمه وبقية دم عشرة من أخصائه، ثم فتح الحصن وقتل كل من فيه وبها بالعشرة الذين اختارهم إلى أبي بكر رضى الله عنه، فعيل توبته وروجه نُخته أم فروة. فلما شئت الفنة بين علي ومعاوية كان هو من حرب على يتطلع للفرصة السانحة

ثم رحف علي رضى الله عنه إلى صفير، فكان الأشعث ول لمنهجين إلى القتال حين سد أهر الشام طريق الماء، وجاء علياً يقوى «يا أمير المؤمنين أيمعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا؟ ولقي الرحف إليه عوالله لا أرجع أو أموت»

ولكنه عاد إلى المسالمة، بعد أن وضع النصر في لبلة الهرير، عخطب في قومه من كنده قائلا

« قد رأيتم يامعشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فعل فيه من العرب قوالله لقد بلغت من الس ما شاء الله أن أبلغ، فف رأيتم مثل هذا اليوم قط ألا غلبت الشاهد العائب أب إن توافقنا عد إذن لعيت العرب وصيغت الحرمات. أما والله ما أقول هذه المقالة خوفا من الحرب، ولكني رحن مسر أخاف على النساء والذراى غدا إذا قدينا».

ثم ذهب إلى علي رضى الله عنه بعد رجع المصاحف، فقال به «ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يحيبوا القوم إلى مادعوهم إليه من حكم القرآن فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل»

ولقي معاوية فسأله «يامعاوية. لأى شىء رفعت هذه المصاحف؟»

قال «لدرج رحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل في كتابه تبعثون معكم رجلا ترضون به، وبعثت معي رجلا، ثم سأخذ عليهما أن يعملان في كتاب الله لا يعدوانه. ثم نتبع ما اتفقا عليه»

فقال الأشعث، «هذا الحق»

وعاد إلى علي ينادى بالتحكيم، ويختار له هو وأنصاره رجلا يسوب عن علي، وعلي لا يرصاه.

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا و حبروا على أمير المؤمنين، فلم سألوا أن
يحبوه بالقول السيئ مندرين متوعدين

«يأبى أحب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه، وإلا تدعك برمتك إلى
أقوم أو تفعل كما فعلنا بأبن عفان إنه عرض علينا أن يعمل بما في كتاب الله
عز وجل فقبلناه والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك».

وألوا عليه أن يرد قائده لأشتر النخعي من ساحة الحرب، وإلا اعتزلوه أو قتلوه
مقبل التحكيم وهو كاره

واختار أهل الشام عمرو بن العاص فقال الأشعث: «فأب رصفت سأسى موسى
الأشعري»

قال علي «إنه ليس لي بثقة. قد هارقي رخدل الناس عني، ثم هرب مني حتى
أسنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك»

قالوا «لا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما
بأدنى من الآخر»

قال: «فأبى أجعل الأشتر»

قال الأشعث - وهو يفسى على لأشتر مكانه ويلاءه من قبل - «وهل سعر
الأرض غير الأشتر؟ أو قال وهل نحن إلا في حكم الأشتر»

علم رأي إصرارهم، فقله أنصاره على رأيه بينهم قال «فقد أبيتم، لا أب
موسى؟»

قالوا «نعم»

قال «فاصنعوا ما بدا بكم»

* * *

فهذا رجل من الرعماء المصاعين في جيش علي، لم يدع من وسعه شيئا لتغيب
حرب معاوية على حربه، واستكثر عليه أن يكون «الحكم الذي يختاره بصيرا له
مؤمنا بحقه وصحة رأيه ولا طائل في البحث عن هذا الخذلان الصريح، أكان هو

الطمع في الملك بعد قتل علي أم نعمة علي لأشتر السحفي في مكانته وبلائه، أم اتواطؤ بيته وبين معاوية علي مبيعة مزحلة ومكافأة موعوده. وبهم ليه الخبيثة طاهرة وإن استقرت العلة وأي كانت العلة الخفية فقد صنع الرجز غاية ما استطاع لتعليق حرب معاوية وخذلان الحرب الذي هو فيه

فإن علي نصف قسمته من أنصار، وقسمته من الدوائر وبعثات «لواحبى جبل لتهاوت»

وقال يصف أنصاره «أيها الناس المحتمة أديانهم، استتعة أهواؤهم، كلامكم بوهي الصم الصلاب، وفعلكم بطمع منكم الأعداء ما عرت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قساكم أعابيل بأضليل دواعي الدين المطورة أي دار بعد داركم تمعون؟ ومع أي إمام بعدى تقاتلون؟ المعرور والله من عرتموه، ومن فر يكف فقد فار والله بالسهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق باصل^١ أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع في بصركم، ولا أوعد العدو بكم، ما بالكُم؟ ما دواؤكم؟ ما طبُّكم؟ القوم رجال أمثالكم، أمولاً بغير علم؟ وعقلة من غير ورع؟، وطمعاً في غير حق؟»

وهي صيحة لا تصف إلا بعض ما يعابه من حيرة، لا مخرج له منها في سياسة أصحابه فإنه لم يفرغ من التحكم أدنى أدعى له وهو كاره، حتى فوجئ بطاقة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل ذلك انتحيم ورعوه قبولاً للتحكيم في كلام الله وفي رماء المسلمين، وهو عندهم كفر بوح، أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح، وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذلك^١

ثم اجتمع الحكماء بدومة الجندل التي وقع عليها لا اختيار لتكون وسط بين العراق والشام ولم يكن قرار الحكماء خافياً على من عرفوا أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص فإن أبا موسى لم يكتف فقط أن السلامة هي احتساب الفريقين والعودة عن القتال، وليس أيسر من إقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء ثم يرجع الرأي إلى عمرو بن العاص في إقرار هذا الخلع أو الاحتيايل فيه بالحيلة التي ترضيه

(١) الأفرق هو السهم المكسور في موضع الوتر والنص العاري من النص.

غير أن الدهاة من العرب، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحنال نفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذي أبايه عنه

ومن هؤلاء الدهاة المعيرة بن شعبة الذي اعترى الفريقين من مطلع الفتنة إلى يوم التحكيم، فلما حتمت الحكمان علم أنها الجولة الأخيرة في الصراع.. فخرج من عزلته ودعا ليستطلع الأمور، على سنة الدهاة من أمثاله، إذ يتسمون الريح قبل هبوبها، ولا يفتقون أنفسهم بمهدها قبل أوانها فلقى أبا موسى وعمرو بن العاص، ثم ذهب إلى معاوية وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكامين واضطراب الظنن فيما وراء هذا الإبطاء المريب فعرف له وهو يرى اشتعال باله «قد أتيتك بخبر الرحلين» قال معاوية وما خبرهما؟

قال المعيرة «بى خلوت بأبى موسى لابلو ما عنده فقلت ما تقول فيمن اعترى عن هذا وحس بى بيته كراهية للدماء» فقال أولئك خيار الناس، خفت ظهورهم من دماء إخوانهم ويطرونهم من أموالهم فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص، فقلت يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعترى هذه الحروب؟ فقال أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا..

ثم عقب المعيرة قائلا «ما أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وحاعلها لرحل لم شهد، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي عرفته، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه..»

وقد أحس المعيرة حزنه - نطق الحرف بالحرف - فى تقدير نية الرحلين، فابهما ما اجتماعا هنيئة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له «يا عمرو! هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله؟» قال «وما هو؟»

قال «نولى عبد الله بن عمر، فإنه لم يدخل فى نفسه شىء من هذه الحروب» فراع عمرو قليلا يحاول أن يلقى فى روع صاحبه أنه يريد معاوية، ثم عاد يسأله فما يمنعك من ابى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم محرفته وصحبته؟

فأوشك أبو موسى أن يحبيه لولا أنه قال «إن ابنك رجل صدق، ولكنك عمسته في هذه الحرب عمسا»

وتكرر بينهما هذا القول وأشبهه في كل لقاء، وطوقا يبدآن منه ويعيدان إليه بعد كل جدال، حتى وفر في خلد الأشعري أن خضع الزعيمين أمر لا مباحص منه ولا اتفاق بينهما على غيره، فتواءعا إلى يوم يعلن فيه هذا القرار.

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد «أيها الناس، إنا قد بطرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، ونستعمل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً»

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد «إن هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أدخل صاحبه كما خضعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه، والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه»

فغضب أبو موسى، وصاح به «مالك لا وفقك الله عدت وهدرت، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث»

فابتسم عمرو، وهو يقول: «بما مثلك كمثر الحمار يحمل أسفارا»

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين وهما يقصيان عى العالم بأسره ليرضى بما قصياه

وانتهت المأساة بهذه المهرلة، أو انتهت المهرلة بهذه المأساة

وبان أن اجتماع الحكيمين لم يعص إلى اتفاق بين الحكيمين فعاد الخلاف إلى ماكان عليه

غير أنه استشرى واحتدم بعد قصة الحكيمين بما راد عليه من فتنة الخوارج المبكرين للتحكم

فقد اجتمعوا وأبرموا فيما بينهم «إن هذين الحكيمين قد حكما بغير ما أنزل الله، وقد كفر إخواننا حين رصوا بهما، وحكموا الرجال في دينهم وبحر على

الشخص من بين أظهرهم، وقد أصبحوا واحداً له وبحر على احد من بين هذا
الحلق»

وخرجوا وعلى يأبى قتالهم حتى يؤس من توبتهم، ولقيهم بالحيش، فآثر أن
يلقاهم مباحثاً قبل أن يلقاتهم مقاتلاً، واقترح عليهم أن يخرجوا إليه رجلاً منهم
يرصونه، يسأله ويحييه ويتوب إن لزمته الحجة ويتوبوا إن لزمتهم. فأخرجوا إليه
إمامهم عبد الله بن الكواء

قال علي «مالدي مقمتم على بعد رضاكم برلايتي وجهادكم معي وطاعتكم
لي، فهلا برقتم مني يوم الحمل؟»

قال ابن الكواء «لم يكن هناك تحكيم».

قال علي «يا ابن الكواء ويحك أما أهدى أم رسول الله ﷺ؟»

قال ابن الكواء «بل رسول الله ﷺ»

قال علي «عما سمعت قول الله عز وجل ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاتَكُمْ وَنِسَاءَنَا
وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون»

قال «ن ذلك احتجاج عليهم، وأنت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين،
بحر أخرى أن تشك فيك»

قال «وإن الله تعالى يقول ﴿قُلْ قَاتِلُوا بَكْرَتِ بْنِ عَدْنِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٩)»

قال ابن الكواء «ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم» ثم قال بعد كلام طويل من
تبيين كلامه هذا «إك صادق في جميع قولك غير أنك كفرت حين حكمت
الحكمين».

قال علي «ويحك يا ابن الكواء إني إنما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرا».

قال ابن الكواء «هنا أبو موسى كان كافراً»

قال علي «متى كفر؟ أحين بعثته أم حين حكم؟»

قال ابن الكواء «بل حين حكم»

قال علي «أفلا ترى أنني بعثته مسلماً فكفر في فورك بعد أن بعثته. أرأيت لو أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله^(١) فدعاهم إلى غيره، هل كان علي رسول الله ﷺ من ذلك شيء؟»

قال: «لا»

قال «ويحك فما كان علي أن صل أبو موسى؟ أفيحس لكم بصلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عراتكم فتعترضوا بها الناس؟»

فعلم الخوارج أن صاحبهم ليس بعدل علي في مجال نقاش، فكفوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق علي في حقه وقصده، لولا أنهم قوم قهريهم لحاجة العباد كما يقهر أمثالهم من المهوسين الذي يجدون في لمصى مع العباد لذة يستمرنون بها من الحق والمعرفة فمردوا علي الشقاق، وأصرروا على تكفير علي وأصحابه، وأن يعاملوهم في الحرب والسلام معاملة الكفار

* * *

واستبقى علي بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة. فرفع في الساحة راية ضم إليها ألعى رحى ونادى: «من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن»

ثم قال لأصحابه «لا تبوءوهم بالقتال حتى يبدءوكم» فصاح الخوارج صيحتهم «لا حكم إلا لله وإن كره المشركون» وهجموا هجمة رجل واحد وتلقاهم علي وأصحابه لقاء من نفذ صبره ووغر صدره فما هي إلا ساعة حتى قتل معظم الخوارج، وبقي منهم نحو أربعمئة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال فأمر بهم علي فحملوا إلى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج

* * *

وأراد المسير إلى الشام ليلقى بها جيش معاوية

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى، كما تصدى له في كل فرصة سابحة للعلية، وقار له علي مسمع من الناس «يا أمير المؤمنين نفدت

(١) وقد حدث هنا في عهد النبي عليه السلام، إذ أورد بهار الرحال ليهدي قوم مسلطة فقلب هناك مبشراً بدينه

وقال عمرو بن بكر «أما أكهكم عمرو بن العاص»

وإن ضغينة الثأر لحاقز أى حافر

وإن تهوس العقيدة لمثير أى مثير

وكان للمتأمرين الثلاثة قسط واف من هدين الحافرين، بغنى عن مريد من
التحريض على القتل والانتقام

ولكن لمصدفة العجبية هى التى شاءت أن تشحن عريمة ابن ملحح بحافر
ثالث لعله يمضى حين ينبه هذان الصهران المصيران، وهو حافر من العوام
الطامع لا يرويه إلا دم ذلك الشهيد الكريم

فإن امرء قد يقيم باثرة الحصد، وقد يمارى نفسه عما يفرضه العقيدة ويكنه
إذا كان عاشقا مخبولا يستحره الوعد منشوق مسلط عليه، فهو مأسور رماحه فى
يدى عدوه، وليس فى يديه

* * *

كان ابن ملحح بحر فتاه من تيم الرباب، قتل أبوها وأخوه وبعض أقربائها
فى معركة الحوارج، وكانت ترصف بالجمال العائق والشكمة القوية، وتدين
بمذهب قومها فوق ما فى حواشها من لوعة الحرر على دويها، فلما خصبها ابن
ملحح لم ترص به روح إلا أن يشفى بوعتها قال «وما يشفبك» قالت «ثلاثة
الاف درهم وعبد وقيعة، وقتل على بن أبى صالب»

قال «أما قتل على فلا أراك ذكرت لى وأنت تريدنى»

قالت «بل التمس غرته، فإذا أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهأتك العيش معى
وإن قتلت فما عند الله خير من الدسا وريدتها وريده أهلها»

وخرج الثلاثة متواعدين إلى سلة واحدة، يقتل كل منهم صاحبه فى ذلك الموعد
فأما عمرو بن العاص، فقد اشكى بطيه تلك الليلة فلم يخرج من بيته، وأمر
خارجة بن حدافة صاحب شرطته أن يصلى بالدس قصره عمرو بن بكر وهو
يحسبه عمرا يقتله فعاد عمرو أردتى وأراد الله خارجة، وأمر بقتله

وما معاوية فصرية البرك بن عبد الله وقد خرج العداة للصلاة فوَقعت
لصرية على أليته وقيل إن الصعنه مسمومة لا يشفها إلا الكي بالبار أو شرب
بمع النس. فخرج معاوية من البار، ورعى انقطاع النس وهو يقول «فى يريد
وعبد الله ما تقر به عيني، وأمر بالرجل فقتل لحية».

وأما على، فصرية بن مجم بن جبيهة بسيف مسموم وهو خارج للصلاة،
فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من امثلة ويقول لهم «يا بني عبد المطلب
لا ألعينكم نخوصون دماء المسمير تقولون قتل أمير المؤمنين، قتل أمير
المؤمنين ألا لا يقتل أحد إلا قتلى»

«نظر يا حسن إن أنا مت من صريته هذه فاصرية صرية بصرية ولا تمثل
بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول بأكم ولمثلة ولو أنها بالكل العقور»

* * *

وهذه خاتمة الفاحشة، ينظر في كل فرض من فرضها فلا تحلبها من
المصادفة السيئة التي لا تلقى تبعث على أحد بعينه

فهم بقول القائلون إن علياً إنما أصيب لأنه كان لا يتقي أحداً، ولا يخرج إلى
المسجد بحرس، فالواقع أن المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق في عشرات الحظ
ببسه وبين رمليه الدين سيقا معه إلى مكيدة واحدة فخرها منه بضيق غير
حظ، فإن ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج إلى المسجد محروساً، ولكنه نجا
لأنه لرم بيته في تلك الليلة، ومات صاحب شرطته الذي خرج في مكانه ولم ينج
معاوية لأنه خرج محروساً، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت إصابته غير قاتلة

فهى المصادفة السيئة مهما تلمس بها على من غل التاريخ، ترجع بنا في
آخر الأمر إلى على المصادفات التي لا تقبل التحليل.

وشىء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاحشة، كما تصوره لنا البيعة كلها من
قبل ابتدائها إلى ما بعد انتهائها.

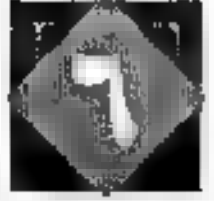
وذلك هو المسيح الإسماعيلي الذي يتخلل حياة على في لحمتها وسداه،
وفي تفصيل أجزائها وجملة فحوائده، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة

النبيلة إلا وهي معرض حافل لمعاطف الإنسانية برمتها تلتقي فيه عوامل
الحوة واشماعة والوفاء والإيمان والسماحة، وتشتبك فيه مطامع البس
وأشواقهم وظواهرهم وخفائهم وذلك الاشتباك الذي يحلقه السعراء خلقاً في
القصص والملاحم، فلا يحكمونه بعض أحكام الواقع المموس في سيرة الإمام
وقد أسلفنا في صسر هذا الكتاب أنها سيرة تلامس النفس الإنسانية في شتى
نواحيها تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة، ومن
ناحية الفكر كناحية الخيال، ومن ناحية التمرد كناحية الولاء، فإذا اتبعت السيرة
بالخاتمة، فأى خيط من خيوط تلك الشبكة الإنسانية التي تنسجها انقراض
لاقتصاص اشعور وتقريب الخيال تفقده في هذه الخاتمة الفاحشة؟ أى باعث من
بواعث القصص الدمية بأحاسيسها ولواعجها لا يربعد هذا ارتعاداً في كل فصل
من مصولها ومشهد من مشاهدنا؟ ياس الكريم المعبود وحرأة المحبال لغالب
وغرام المتهوس المحبور، وأريحية القليل الموصى بمن اعتدى عليه، وحقد المرأة
وخداغ الحمال، وريغ لعقيدة، واستواء الإيمان، وفور لا تحصي تحتمع من
الشعور الموارد واللهفة الدائمة في خاتمة حياة تسع ألف حياة

* * *

وهذه مزية على بين خلفاء الإسلام ق طبة يعرف بها لأنه انفراد بمثال من
النفس ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤهله امصادفات في الأجيال
الطوال، ولا تحس أن تؤلفه بمشيتها في كل جيل.

تلك حياة حي. ودل مصرع شهيد



سياسته

تسرى في صفحات تاريخ أحكام مرتحلة بتلفعها عم من عم، ويتورثها حبل عن حبل، ويتحدوها السامعون قصيه مستمة، مفروغا من بحثها والاستدلال عليها، وهي في الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال، ولم تحاور أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال، ثم صقلها الألسنة فعز عليه بعد صقلها أن تردف إلى البحر والإهمال

كل أولئك من لعو الشعوب ولشعوب بداهة تقصر دونهما بداهة العواصين من الأفراد، ولكنها إذا نغت فشوطها في اللغو أوسع من شوط الفرد يأمد بعيد من تلك الأحكام المرحطة قولهم إن علي بن أبي طالب رجز شجاع، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة

وقد شاع هذا الرأي في عصر علي بن أصحابه، كم شاع بين أعدائه، وعمر لقول به أنه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه، وأنه لم يبح بعد هذه المخالفة في معظم مساعده، فكان من الطبيعي أن يقال إنه منى بالفشل لأنه عمل بعير ما أشار به أصحابه الدهاة، وأنه هو لم يكن من أصحاب الخدع الساحقة في لحرب أو السياسة..

وقد يكون كذلك أو لا يكون، فعسرى بعد البحث في آرائه واره المشيرين عليه أي هذين القولين أدنى إلى الصواب.

ويكن هل خطر لأحد من باقديه، في عصره أو بعد عصره، أن يسأل نفسه أكان في وسع علي أن يصنع غير ما صنع؟

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك هيه استطاع أن يصنع غير ما صنع مما هي العاقبة؟ وهل من المحقق أنه كان يعصى بصيغه إلى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار إليها؟

ثم يعرف أحداً من ناقديه، خصمه له أن يسأل عن هذا أو ذاك مع أن السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الصواب والخطأ في رأيه ورأي مخالفه سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة

والذي يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأي الذي سبق إليه لم يكن مصمون النجاح ولا كان مأمون الخطر، بل ربما كان الأمر في نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم، لو أنه وضع في موضع العمل والإيجاز وخرج من حير النصيح والمشورة

وهذه هي المسائل التي خافه فيها الدهاة، أو خالفه فيها نقدة التاريخ لدين نظروا إليها من الشاطئ، ولم يبطروا إليها نظرة الرياء في غمرة العواصف والأمواج فالماخذ التي من هذا القبيل، يمكن أن تنحصر في المسائل التالية، وهي

- ١ - عزل معاوية
- ٢ - معاملة طلحة والزبير
- ٣ - عزل قيس بن سعد من ولاية مصر
- ٤ - تسليم قتلة عثمان
- ٥ - قبول لتحكمكم
- ٦ - قبول الخلافة

وهي كلها على الأقل قابلة للحلاف والاحتجاج من كلا الطرفين فإن لم يكن حلاف وكان جزم قطع فهو على ما نعتد أقرب إلى رأي على وأبعد من آراء مخالفه وناقديه

* * *

قبل هي مسألة معاوية إن علياً رضي الله عنه خالف فيها رأي المعيرة وابن عباس ورياد بن حبضلة التميمي، وهم جميعاً من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير

حماه المعيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له «إن لك حق لطاعة والنصيحة، وإن الرأي اليوم تحرر به ما في عد، وإن الضباع اليوم تصبغ به ما في عد أقرر

معاوية على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أنك طاعتهم وبيعهم
الجيود استبدت أو تركت»

فأبى وقال «لا أداها في ديني، ولا أعطى الدية في أمري»

قال المغيرة «فإن كب أبيت عى هارزع من شئت واترك معاوية فإن في
معاوية حراً، وهو في أهل الشام يستمع له ولك حجة في إثباته. إذا كان عمر قد
ولاه الشام»..

فقال علي «لا والله.. لا أستعمل معاوية يومين»

* * *

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له، لما علم برأي المغيرة «إنه يصحك»

قال علي «ولم يصحني؟»

قال «لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دين، فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن
ولى هذا الأمر، ومتى تغزلهم يقرلوا أخذ هذا الأمر بغير شوري، وهو قتل صاحبنا،
ويؤلبون عليك فيستقص عليك أهل الشام وأهل العراق

ثم مصت الأيم، وشاع بين أهل المدينة أن معاوية مقتص على الإمام.
فبعثوا بزياد بن حنظلة التميمي يعلم ما عنده من أمر هذا الاستفاض، وكان زائد
من جلسائه

فقال له الإمام «تسير»

قال زياد «لأي شيء؟»

قال «تعررو الشام»

فقال زياد «الأناة والرفق أمثل، واستشهد بقول الشاعر

ومن لم يصاح في أمور كثيرة يصرس بأنبياء ويوطأ بمسهم

فتمش على

متى تجمع لقلب الدكي وصارم وأنا حميد تحتك المظالم

فخرج ريثا إلى الناس وهم يسألونه «ما وراءك؟» فأحدهم «هو السيف باقوم»

* * *

تلك آراء المشيرين من دوى الحكمة، وذلك ما عمل به الإمام وارتضاه فأيهما على خطأ وأيهما على صواب؟

سبيل العلم بذلك أن نعلم أولا هل كان الإمام مستطيعا أن يقر معاوية في عمله بالمشام؟

وأن نعلم بعد هذا هل كان إقراره أدنى إلى السلامة وابقاق لو أنه «استصاع» وعندنا أن الإمام لم يكن مستطيعا أن يقر معاوية في عمله لسببين أولهما أنه أشار على عثمان بعرضه أكثر من مرة، وكان إقراره وإقرار أمثاله من الولاة المستعجلين أهم المأخذ على حكومة عثمان في رأى على ودوى الصلاح والاستقامة بين الصحابة، وكثيرا ما اعتذر عثمان من إقرار معاوية بأنه من ولاية عمر بن الخطاب. فكان على لا يقبل هذا العذر ولا يزال يقول له «إنه كان أخوف بعمر بن الخطاب من غلامه «مرفأ» ولكنه بعد موت عمر لا يحاف»

فبدأ أفره ولى الخلافة، فكيف يقع هذا الإقرار عند أشبهه؟ ألا يقولون إنه طالب حكم لا يعنيه إذا وصل إلى بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس؟

وبدا هو أعرض عن رأيه الأول، مهل في وسعه أن يعرض عن إراء لثائرين الذين يبيعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان إلى حكم حديد؟

إن هؤلاء الثائرين شفقوا من بية الصلح مع طلحة والزبير في وقعه الحمل، فعدوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به بل محموا على أهل البصرة وهم مأمورون بالهدنة والأناة فكيف تراهم يهدءون ويصيعون إذا علموا أن الولايات ياقية على حالها، وأن الاستغلال الذي شكروا منه وسخطوا عليه لا تبدل فيه؟

وبدع هذا وبرغم أن إقرار معاوية بحبة من الحيل مستصاع فهو على هذا لزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق؟

كلا على الأرجح، بل على الأرجح ندى هو في حكم اسحقق لأن معاوية لم يعمل في الشام عمر وال يطل والي طول حياته، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتناول

إلى ما وراءه، ولكنه عمل فيها عمر صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبائنه من بعده. فجمع لأقطاب من حوله، واشترى الانصار بكل ثمن في يديه، وأحاط نفسه بالقوة والثروة، واستعد لبقاء الطويل، واعتصم الفرصة في حينها فأى فرصة هو واحدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟

وإنما كان مقتل عثمان فرصة لا يصيغها، وإلا صاع منه الملك وتعرض يوما من الأيام لصياع الولاية وما كان مثل معاوية بالذي يفوته الخطر من عزه بعد استقرار الأمور، ولو على احتمال بعيد. فماداً تراه صانعاً إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلى وتبرنته إياه من دم عثمان؟

إنما كان مقتل عثمان فرصة لعرض لا يقبل إلا رجاء

وإن كان هذا موقف على ومعاوية عند مقتل عثمان، فماداً كان على مستفيداً من إقراره في عمله وتعرض نفسه لغضب أنصاره

لقد كان معاوية أخرى أن يستعيد بهذا من على، لأنه كان يغم به حسر الشهادة به وتزكية عمله في الولاية، وكان يغم به أن يفسد الأمر على على بين أنصاره فتعلو حخته من حيث تسقط حجة الإمام

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيته أن صواب الإمام في مسألة معاوية كان أرحح من صواب مخالفه فإن لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح فأقن ما يقال إن الصواب عندهم سواء

* * *

والتقدير في مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير في مسألة معاوية وولاه عثمان على الأمصار

لأن الرأي الذي عمر به الإمام معروف، والآراء التي تحالفه لا تعدر واحداً من ثلاثة كلها أعمص عاقبة، وأقن سلامة، وأضعف صواب من رأيه الذي ارتصاه

فالرأي الأول أن يوليهم العراق وابصر أو البصرة والكوفة، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأي فأكرهه الإمام لأن «العراقيين بهما الرجال والأموال، ومتى تملكنا رقب الناس يستميلان النسخة بالطمع ويصريان الضعيف بالبلاء، ويقوين

على القوى بالسلطان « ثم يفتقدان عليه أقوى مع كانا بغير ولاية، وقد استفاد من إمامة الإمام لهما في الولاية تركية يلزمه بها الحجة، ويثيران بها أضراره عليه والرأي الثاني أن موقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل وهو لا ينح في اوقعية بينهما إلا بإعطاء أحدهما وحرمان الآخر فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع العرة الساحة، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره، فيذهب إلى الشام ليساوم معاوية، أو يبقى في المدينة على صعوبة مستورة.

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى في مسيرهما من مكة إلى البصرة، فوقع خلاف في عسكرهما على من يصلي بأحدس، ولولا سعي السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين

ولم نطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين، فأنهرما بعد أيام قليلة، وخرج الإمام من حربيهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة، ولو بقيا على اسلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة

ورأي الثالث أن يعتقلهما أسيرين، ولا يبيع لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشتا الغارة عليه والواقع أن الإمام قد استراب بما نواه حين سألاه الإذن بالسفر إلى مكة فقال لهما: « يا العمرة تريدان، وإنا تريدان العدة »

ولكنه لم يحبسهما، لأن حبسهما لن يفيد عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه في السفر، وتسلل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا، ولو أنه حبسهم جميعا لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر، وهو في ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان، وأغلب الص أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم ويعفون حبسهم قد أن تثبت له البينة بوزرهم وبأكثر المتحرجين في عسكر الإمام من حبس الأبرياء بغير برهان. لقد كان هؤلاء خلفاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيعلنهم من أن يكتموه فيعلنوه ويشككوا بعض بضراره في عدله وحسن مجاملته لهم.

وعلى هذا كله، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء لم بكر الحبش الذي خرج من مكة إلى البصرة بيأس من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والريبر، فقد كانت «العثمانية» في مكة حرباً موقور العدد والمال فهي مسألة تلتنس فيها الطرائق، ولا يسعنا أن نحرم بطريقة منها أسلم ولا أصغر عاقبة من الطريقة التي سلكها الإمام وخرج منها عاباً على الحصار والعراق، وما كان وشيكاً أن يغلب عليهما لو بقي معه طلحة والريبر على حرص من جميع الفروض التي قدمناها

* * *

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر، فهي عضة من غلطات الإمام يقر الخلاف فيها

لأن قيس بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحببها، وكان كفواً لمعاوية وعمرو بن العاص في الدهاء والعداورة، فعزبه الإمام لأنه شك فيه وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام، ورغم أنه من حربه والمؤتمريين في السر بأمره.

وكان أصحاب علي يحرضونه على عزله، وهو يستمهلهم ويراحع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه فعزله وهو غير واثق من التهمة، ولكنه كذلك غير واثق من الجراءة

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالصعيفة، فإن قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بحماعة من حرب معاوية، فأجاروه ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم، فحسبوه حين أثاروه من العثمانية الهاريين إلى مصر من دولة علي في الحصار

ولما بايع المصريون علياً على يديه، بقي العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون، وقالوا له «أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر» فأمهلهم وتركهم وادعين حبث طاب لهم المقام بجوار الإسكندرية

ثم أعراه معاوية بمناصرته ولخروج علي الإمام، فكتب إليه كلاماً لا إلى الرفض ولا إلى القبول، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغاً لمعاوية أو يحسبه مترقباً لساعة الفصل بين الخصمين إذ كان ختام كتابه إليه « أما

مصابعتك فأنظر فيها، وليس هذا مما يسرع إليه وأن كف فلا تأتتك شيء من قبلى تكرهه، حتى يرى وترى»

ثم اشتد في وعيده حين أنذره معاوية فقال «أما قولك إني مالى عليك مصر خيلا ورحلا، فوالله إن لم أشعلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لدوحد والسلام...»

وأراد الإمام أن يستيقظ من الخصومة بين قيس ومعاوية، فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة فلم يفعل وكتب إليه « متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك، وهم الآن معتزلون والرأى تركهم»

فتعاطف شك الإمام وأصحابه، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه إلى لمدينة فعزله واستقدمه، وبين بعد ذلك أنه أشار بالرأى الصواب، وأن يترك لمتخلفين عن البيعة في عزلتهم خير من السعيين بحربهم، لأنهم هرموا محمد بن أبي بكر وإلى مصر الحديد، وجرءوا عليه من كان يصابعه وبوالله علة لا ريب فيها.

ون كان جائرا مع هذا ألا يهزموا قيسا، لو كان جارهم، كما هرموا خلفه الذي لا يعده في الحزم والخبرة

وبكنا بباغ على كل حال، إذا علقنا بها الجرائر التي أصابت الإمام من بعدها، ورعما أنه تفاعد عن إصلاحها في حينها، كما تصلح الغلصات التي يساق إليها السياسة فإنما هي علة من تلكم الغلصات التي تضير والحوادث مولية. ولما نصير أو تعز على الإصلاح والحوادث مؤاتية وقد عرف الإمام خطأه فقام لصحبه « ن مصر لا يصلح لها إلا أحد رجلين هذا الذي عزلناه والأشتر، وأبعد الأشتر إلى مصر ليعيدها إلى طاعته فمات في الصريق

* * *

والأقوال في موت الأشتر هذه الميئة الباعثة كثيرة، منها أنه مات عيلة وإن معاوية أعزى به من دس له السم في غسل شربه وهو على حدود مصر قفصى بحبه، وروى أن معاوية قال حين بلغه موته « ن لله حنودا من العس»

هنا صحت الرواية، واعتقد من اعتقد أنها من دلائل السياسة انقوية عند معاوية فمما لا شك فيه أن موب الأشر، لم يكن من دلائل السياسة اضعيفة عند الإمام، وأنه لا لوم على سياسته في اغتياله، إن كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة عند من يحميونها

ومن عجائب هذه القصة أن معاوية بدم على تقريظ قيس من جوار علي، وقار «لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون على من قيس» لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه في عامة أموره، ولا يبحصر نفعه له في سياسة مصر وحدها ولكن الذي حذر معاوية لم يكن، وإنه حذر علي كان وإذا ولت الحوادث فقد ينفع الخطأ وقد يصير الصواب.

* * *

ثم تأتي مسألة القصاص من قتل عثمان التي كانت أطور المسائل جدلاً بين الإمام وخصومه، فإذا هي أقصرها جدلاً من براءة المقصد من الهوى وخلوص الرعدة هي الحقيقة

مقد طالبوه بالعود ولم يبايعوه، مع أن القود لا يكون إلا من ولي الأمر المعترف له بإقامة الحدود.

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتل، ومن هو الذي يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد.

وأعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا يستطيع قبل أن تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة، وأعقوا أنفسهم منه - وهم ولا الدم كما يقولون - يوم قضوا على عيان الحكم وثابت السكينة إلى جميع الأمصار

وقد تحدث الإمام مرة في أمر القود من قتل عثمان، فإذا بحيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأبهم «كلهم قتلة عثمان» فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين.

وكان الإمام يقول لمن طلبوا منه إقامة الحدود «إنى لست أحول ما تعلمون، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكون ولا يملكونهم، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبادكم

وثابت إليهم أعرابكم، وهم ببيدكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موصفا لقدرة على شيء مما تريدون؟»

ومن قوله لهم « إن هذا الأمر جاهلية وإن هؤلاء القوم مادة، وإن الناس من هذا الأمر الذي تطلبون على أمور فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ أساس وتقع القلوب موافعها، وتؤخذ الحقوق هاهنا وعسى، وانظروا ماذا يأتىكم ثم عوبوا»

ولو أن المطالبين بدم عثمان لتمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له، والقصاص من العادين عليه، لقد كن هذا أقرب الطرق إلى ما أرسوا. يؤيدون ولي الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إصاف

غير أنهم طلبوا ما لا حساب، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضى الله عنها وقد روى عنها أنها قالت لما أخبرت ببيعة على وهي خارجة من مكة «ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لعلى» تشير إلى السماء والأرض ثم عادت إلى مكة وهي تقول «هتل والله عثمان مظلوما، والله لأطبن بدمه»

فقيس لها «ولم؟ والله إن أول من أثار الناس عليه لأنت وقد كنت تقولين اقتلوا «نعلنا» فقد كفر»

فقالت «إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلب وقالوا، وقولى اليوم خير من قولى الأول»

وباهيك بالسيدة عائشة فى مصلها ومكاتها وتقواها، فقل ما شئت من المطالبين غير ما بهذا المطلب الذي لا يجب

والرصد، أو الإرصاء. مستحيل حين يكون الطلب من هذا القبيل

* * *

أما الدين لأموه لقبوله التحكيم، فيخيل اليما من عجلتهم إلى اللوم أنهم كانوا أول من يلومه ويفرط فى لومه لو أنه رفض التحكيم وأصر على رفضه، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه

ولكنه قبله بعد إحكام حنوده عن الحرب، ووشك القتال في عسكرهم خلافا
بين من يقبلونه ويرتضونه

وقبله بعد أن حصر الحفّاظ والقراء ببغ وثمانين مرة للقتال لشكهم في
وجريه وذهاب بعصمهم إلى تحريره

وبعد أن توعدوه بقتله كقتله عثمان، وأحاطوا به بلحون عليه في استدعاء
الأشتر النخعي الذي كان يلاحق أعداءه مستحصدا في ساحة الحرب على أمل في
العصر القريب..

والمؤرخون الذين صوبوا رأيهم في التحكيم وخطره في قبور نبي موسى
الأشعري، على علمه بصعفه وترده، ينسون أن أبا موسى كان مقروضا عليه،
كما فرص عليه التحكيم في لحظة واحدة. ويسبون ما هو أهم من ذلك، وهو أن
العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله
بن عباس. فإن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر عيها في الخلافة،
وقصارى ما هنالك أن الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة
الأمر إلى مثل ما رجعت إليه. وإن توهم بعصمهم أن الأشتر أو ابن عباس كان
قديرا على تحويل ابن العاص عن رأيه، وانجسح به إلى حزب الإمام، بعد
مسدومه التي ساومها في حرب معاوية. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية
أن يستكين ويسسلم، وحوه المؤيدون والمزقبيون للمطامع واللبائات يعرّ عليهم
إخضاعهم كما يعرّ عليه إخضاعه

وما أسهل المخرج الشرعي الذي يلجأ به معاوية فيقبله منه أصحابه
ويتابعونه على نقض حكم الحكمين لمتففين؟ لقد كان النبي عليه السلام يقول
عن عمار بن ياسر إنه «تقتله الفئة الباغية»، فلما قتله حند معاوية، وخيفت الفتنة
بهم أن تلمهم سبة البغي بشهادة الحديث الشريف قال قائل منهم إنما قتله
من جاء به إلى الحرب. فشاع بينهم هذا التفسير العجيب وقبلوه جميعا غير
مستثنى منهم رجل واحد. فإلا يقبلون تفسير مثله إذا تحول ابن العاص، وأمتى
الحكماء بخلع معاوية ومبايعة الإمام؟

فليس في أيدي المؤرخين الباقدين إدر حل أصوب من الحل الذي أذعن به الإمام على كره منه، سواء أذعن به وهو عالم بخطئه أو أذعن به وهو يسوى بينه وبين غيره في عقابه

* * *

ويبقى اعتزال الخلافة من البداية، وهو حصة ترد على الخطاطر حبال هذه المعضلات التي راحها الإمام، ولم يكن عسيرا عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها وشيوعهما قبل ذلك بين حنده الذي يعول عليه.

ولكنها خطه سلبيه لا يمتحن بها رأى ولا عمل، ولا ترتبط بها تحريرة ولا فشل.. وكل ما هنالك من أسباب ترجيحها أنها أسلم للإمام وأمر لسريه وأهدأ لبياله، وهو أمر مشكوك فيه على ما في طلب السلامة بين هذه الرعايع من أثره، قلما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل

فمن السخف أن يحظر على البال أن رجلا كعلي بن أبي طالب، يترك وادعا في سريه بين هذه الزعاع التي تحيط بالدولة الإسلامية في عصره

إن تركه الثوار وأعفوه من الحكم، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والإيذاء، لا اعتقادهم أنه باب من أبواب لخطر الدائم، وأنه ما عاش فهو عثم منصوب يفيء إليه كل ساخط وكل مصلح وكل محابف على الدين أو على الدنيا وقد قيل إن ابنه الحسن مات مسموما في عهد معاوية خوفا من لينذ الناس به ورجعتهم إليه وهيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد وما أعظم انبون في المكاة والحساب بينهما وبين الإمام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الامان

ولعلنا نقارب هذه الحفيفة من ناحية أخرى، إذا رجعا إلى أقوال أبطال اميدان نفسه في علل النصر والهزيمة، وفيما يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه

فعلى يسمع ما يقار عن شجاعته ورجحان معاوية عليه في الدهاء، فيقول: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يعدر ويعجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس..»

أَوْ يَقُولُ: «وَإِنَّمَا لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاع».

ويعلم من أصابه في بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم: «لَمْ تَكُنْ بَيْعَتَكُمْ بِرَأْيِ عَلِيٍّ، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا. إِنْ أَرِيدَ كُمْ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تَرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ» ومعاوية يذكر الخصال التي أُعير بها عليٌّ، فيقول: «إِنَّهُ كَانَ رَجُلًا لَا يَكْتُمُ سِرًّا وَكَانَتْ كَتُمُهَا لِسَرِّهِ، وَكَانَ يَسْعَى حَتَّى يَفَاجِنَهُ الْأَمْرُ مُوَاجَأَةً وَكَانَتْ أَبَادِرُ إِلَى ذَلِكَ، وَكَانَ فِي أَحَبِّ حِدِّ وَأَشَدِّهِمْ خِلَافًا. وَكَانَتْ أَحَبُّ إِلَيَّ قَرِيشَ مَعَهُ، فَلَمَّا شَتَّتْ».

وعمر بن العاص يقول عن عدة النجاح في طلب الخلافة: «إِنَّهُ لَا يَصِحُّ نَهْدُ الْأَمْرِ إِلَّا رَجُلٌ لَهُ حُرْسَانٌ، يَأْكُلُ بِأَحَدِهِمَا وَيَطْعَمُ بِالْآخَرِ».

وهذه هي أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها، إلا أنها تنص ماقصة ما لم نقرنها بحقيقة أخرى، وهي أن هزيمة معاوية كانت مرحلة - بل مؤكدة - لو أنه وضع في موضع عليٍّ، وابتلى بالأسباب التي ابتلى بها

فالبلاء كله إنما كان في خيث الأحقاد وشدة خلافهم ولهذا كان سر علي يعرف وسر معاوية يكتم لأن معاوية يطاع وبيته في صدره، وعليٌّ لا يطاع إلا إذا سئل عن نيته وما يحل منها أو يحرم في رأي أتباعه وكذلك كانت تفاحته الحوادث لأنه كان يروى فيها ما يروى ولا يبعد من رويته إلا الذي يساق إليه هو وأتباعه آخر لمطاف بحكم لضرورة الحاربه، وقد بطل الحدل وبطل من قبله لتدبير

* * *

ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جندا مطيعا بحدن عصاه، بما طمع في حظ أوفق من حظ عليٍّ في ذلك، انصرع المتفاوت بين الخصمين، لو استعان بكل ما أُعير به من رشوة الأبرار وكيد الخصوم، بن لعله كان يحقق حيث أفلح قرينه عليٌّ قدر ما بينهما من مارق في الشجاعة والسايفة اندسية، وكذلك قال الإمام: «إِنْ لَبِثَ أُمِيَّةٌ مَرُودٌ يَحْرُورُ فِيهِ وَلَوْ قَدْ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ كَذَّبَتْهُمْ الصَّبْحُ لَغَلَبَتْهُمْ».

على أنه لو أن يقف عند بعد الأمور من تعليل النصر والهزيمة، ولا يعود إلى ما وراءه - فليس من قصدا أن نصف علياً بقوة انهيار وسعة الحيلة، ولكن

قصدنا أن نبينه من عجز الرأى وضعف التدبير، لأن أسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه.

فقرام القصر بين الطرفين، أنه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز رأى ولا قوة دهاء ولو كانت قوة الدهاء صفة غائبة فيه لظهرت على صورة من الصور، وإن قامت الحوادث عائفاً بينهما وبين النجاح فإن الدهاء لا يخفيه أن تكون المعضلة التى يعالجها محتومة الفشل مقرونة بالخذلان.

ومما لا شك فيه، أن علياً أشار بالرأى فى مواقف كثيرة فُصِّب المشورة، وأنه وصف أناساً قدس على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الصباغ والخصال، وأنه أخذ بالحرم فى موقع الحوادث واستطلاع الأمور ونكته لرم لكفية فى ذلك، ولم يتجاوزها إلى لأمد الذى يسلكه بين الدهاة الموسومين بعرض الدهاء.

فمن مشوراته الصائبة، أنه بهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه، فقال له «إليك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتنتقم فتدكب، لا تكن لمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرياً فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت رءاً للناس ومثابة للمسلمين»

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم، قوله لابن عباس وقد أرسله إلى طلحة والزبير «لا تلتقيين سلحة، فإياك إن تلقه تلقه كالثور عاقص - أى لاويأ - قوته يركب الصعب ويقوى هو الذبول، ولكن الق الربير فإنه أليى عريكة فهو له «يقول لك ابن خالك عرفتى بالحجاز وأكرتني بالعراق فما عدا مما بدا».

ومن حزمه أنه كان يبت عيوبه وخوايسه فى الشرق والغرب لمطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه وأنه كان إذا وجبت الحرب بدر بانخروج ولم يأت التردد والإبطاء بعد ذلك إلا من خلاف جنده.

ومن معرفته للحماهير أنه وصفهم أوجز وصف حين قال إنهم أتباع كل باعق، وإنهم «هم الدين إذا اجتمعوا صرخوا وإذا تفرقوا بقعوا». لأنهم إذا تفرقوا رجع أصحاب المهر إلى مههم فاستفح بهم الناس.

فهذا قسط من الرأي الصائب، كافٍ لمهمة الحكم لو تصدى به الإمام للخلافة والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة في دور تأسيسها وتلقيق أحزائها

من هو قسط كافٍ لمهمة الحكم في الدولة الدنوية، لو تولاهما بعد استقرارها والفراخ من مكائد تأسيسها كما جاء عمر بن عبد العزيز في صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بني أمية

ولكنه قسط من لرأي لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين يكيدون بالرأي وبالعمل المافذ على السواء.

* * *

ونعود بعد ذلك، فيقول إنه لم يخسر كثيرا بفاته من الدهاء ولم يكن ليربح كثيرا لو استوعى منه أوفى نصيب، لأنه لابد من ملك أو خلافة

ولم يكن ملكا بأدوات خلية، ولا خلية بأدوات ملك، ومن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد لعصر ولعصر يريده، لأنه عصر ملك تهيأ له الدواعي الاجتماعية وتهيأ الرجل بخلائقه وبياته ومعاونة أمثاله

ولم يكن معاوية زاهداً في الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان، ولكن الخلافة كانت زهدة فيه

فلما جاء عصر الملك، طلب الملك وأملك يطلبه.

وقدما قال أموي العباس عم النبي، وقد رأى جيش المسلمين في فتح مكة «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً»

فهو الملك، أو هو جاء الدنيا، الذي تطلع إليه من نشأته الأوسى هي بيته وانتظر ثم انتظر حتى لاقاه على قدر فوضع في موضعه وقام به الموضع كما قام به، وبحامعاً على التوفيق والوفاء

وحين وجب أن يقع الفصر بين الملك والخلافة، وجب أن يكون على رأس عريق الخلافة

وحين وحب أن يقع الفص بين أصحاب المصافع المراعين في دوام المصفعة،
وبين أصحاب المبادئ والصلوات المراعين في التمدد والإصلاح، وجب أن يكون
على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق.

وحين وحب هذا وذاك وحباً لا حيلة فيه للمتحول، ولا اختيار فيه للمحتسب،
وجب أن تصير خلافة على إلى ما صارت إليه، كأنما ما كان خطه من اندهاء
والحديعة، وكأنما ما كان طريقه الذي ارتصاه هو أو أشار به المشيرون عليه

* * *

وقد يحسن بالمؤرخ بعد المواربة بين عدة الخلافة وعدة الملك في صراع على
ومعاصرة، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر في هذا الصراع، وقد ظهرت في مارق شتى
من أخرج مارق التاريخ واعتمد عليها بطله الكبير كثيراً في تأسيس الدول
وقمع الثورات، فاحتصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عباء مويل ونريد بها عدة
البطش المعجل والمباغتة الحاسمة كلف تأشيت العقد وتفسرت الحيلة ووجب
الخلاص السريع

فقد علمنا مثلاً أن الأشعث بن قيس كان يعرض الإمام في كل خطوه من
خطوات البصر ويثقل عليه بالالحاح والعت في مواقف مكربة بصيق بها الصدور
ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب، بل كان له شركاء من
الخوارج وغير الخوارج يطهرون المعت في غير موضعه ويذهبون به وراء حده،
وربما بدعوا من الصرر في معسكر الإمام فوق مناع الأشعث بن قيس، على عظم
العاروق بين سلطانهم وسلطانه

ألا يخطر على ارباب هذا، أن صربة من الصربات القاصصة كانت تنح في هذا
العت المكرب حيث لا تنح العقوبة الشرعية أو الأحاييل السياسية؟

ماذا لو أن الإمام حرد سيفه بين أولئك المشاعين، وأطاح برأس الأشعث بن
قيس قبل أن يفيق أحد إلى نفسه، ثم ولي على انحر من يقوم مقامه في رئاسة
القوم ويكمل لهم الطاعة بيدهم لأمره؟ أكان بعيداً أن تفعل الرهبة فعلها، فيسكن
المتشعب، ويهاب المخطاؤل ويحتجم المتفرق، ويقر الحلاه بعد ذلك على الإمام
وعلى الرؤساء عامة؟

لم يكن ذلك ببعيد

لكنه كذلك لم يكن بالمحقق، ولا بالمأمون

فهى مجارفة ذات حدين، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا وقد يكون الحد الذى تصيب به هو الحد الذى من قبل الصارب دون الحد الذى من قبل المضروب

وكل ما يفيدنا إياه هذه الملاحظة انعابرة على لتحقيق، أن الإمام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التى اتصف بها بعض أبطال العلاقات فى أيام الفص بين عهدين متدبرين فكانت له صرته الشجاع، ولم يكن له صرته المعامر أو المقامر

ولم يصرب بالسيف قط، كنه يقذف بالقذاح إم إلى النكس وإما إلى الحسارة وإما كان يضرب به ضرب الحصى الذى يلتمس العلب بقوته وقوة إيمانه، ولا يلتمسه من جولات السهام وهلنات العيب.

على أسا - وقد سجلنا هذه الملاحظة - نعرض أنه رضى الله عنه كان من أصحاب تلك الملكة التى عرف بها بعض المعامرين فى أوقات الفصل بين العهود.

وبفرض أنه عمد إليها، فبعثته فى عسكره وطوعت له الحد وأراحت من شعب الخارجين عليه وامتشعبين بالاراء وانتهوى من يمينه وشماله فماد عسى أن يعبر هذا كله من طبيعة الموقف الذى أحتماه؟ وكيف يكون لمخرج بين سياسة الملك، كما بطلها العصر، وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية؟

أيسوس لإمام دولته ملكا دينويا أم يسوسها خليفة بيوه؟

أيعرق الأموال على رءوس القوم وقادة الحد وطلاب الترف أم يرمهم عبثة النكس والشطف والجهاد؟

وإذا حرمهم وتأبوا، عليه مع خصمه، أنهو العال إن بمطاب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم العالون؟

وإذ أعطاهم ليبدخوا بدخ الملك الديوري وهو وحده بينهم الناسك المحتهد على
سنة النبوة، أفستقيم له هذا لدور العجيب وهو في حوهره متافص لا يستقيم؟

والسياسة التي اتبعها الإمام هي اسساسة اتى كانت مفيسة له مفتوحة بين
يديه، وهي السياسة التي لم بكر له محيد عنها، ولم يكن له أمل في المحاح ين
حاد عنها إلى غيرها سواء عليه اتفق حنده بصرية من الضربات القاصية أم لم
يتفقوا على دأبهم ابدى رأباه، وسواء لار لطلاب سولة الديوبة أم صمد على
سنة النبوة والخلافة النبوية

* * *

ومهما يكن من حكم الماقدين في سياسة الإمام، فمن الجور الشديد أن يطالب
برفع شيء لا سبير إلى دفعه، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهي منتهية لا
محاله إلى ما انتهت إليه

ومن الجور الشديد، أن يلقي عليه اللوم لأنه باء يشهادة الخلافة، ولا بد بها من
شهيد..

وقد تجمعت له أعباء البقائض والمفارقات التي نشأت من قبله، ولم يك يسلم
منها خليفة من الخلفاء بعد النبي صلوات الله عليه

أحسن بها الصديق، عمار وهو ينحى على الصحابة ويحذرهم بواذر انثرف
الذي استناموا إليه

واحسن بها لفاروق وأنقلت كاهله وهو الكاهل الضليع بأفدح الأعباء. فصاق
ذرعاً بالحياة، وطفق يقول في سنة وفائه «اللهم كبرت سنى وصعفت قوتى، وتشتت
رعيتى، فقبضى إليك غير مصبوع ولا مفرط. اللهم أرقي الشهادة في سبيك».

وأحسن بها عثمان فم فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكريين
متناحرين، لا يرجع أحدهم إلا بالغبية على يده وصده.

وكتب لعل بعد ذلك أن يتلقى الدولة الاسلامية بين هدير العسكريين، فلا في
مقدوره أن يجمعهما إلى عسكر واحد، ولا في مقدوره أن يختار منهما عسكر الملك،
ولا أن يختار عسكر الخلافة الدبية قتل على يديه خلافة دينية بعد أوانها

وما لم يكن في مقدوره لم يكن في مقدور غيره، وإنه لإبصاف قليل أن يعرف
له هذه المعادير الصادقة، وهو الذي بآء وحده بتلك النقائص والأعباء

* * *

وقد نقد سياسة علي لعوان الخلافة منه قبل البيعة كما نقد سياسته لقوات
الخلافة منه بعد البيعة، وأحصى عليه بعض المؤرخين أنه تأخر دينا وعشرين سنة
فلم يخلف النبي، ولم يخلف أبا بكر، ولم يخلف عمر كأنه كان مستطعبا أن يخلف
أحدا منهم بعمل من جهده وسعي من تدبيره، فأعياه السعي والتدبير

ومقطع الفصل في هذا أن نرجع إلى العوائق التي حالت بينه وبين خلافة قبل
وصولها إليه، لنعلم منها العائق الذي كن في أيدي الحوادث والعائق الذي كن
في يديه، أو كانت له قدرة معقولة عليه

فعما لا شك فيه أن لإمام أنكر إحافا أصابه في تخطيه بالسعة إلى غيره بعد
وفاة ابن عمه صوات الله عليه، وأنه كان يريد أن قرابته من النبي مزية ترشحه
للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقاده، وهم شجرة النبوة ومحط
الرسالة كما قال..

ومما لا شك فيه، أن شعوره هذا طبيعي في نفس الإنسانية كيفما كن
حضا من البرهد والقناعة، لأن تخصيصه مع هذه المزية التي ترشحه للبيعة -
يشبه أن يكون قدحا في مزاياه الأخرى، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة
عن إعطامع، أو يشبه أن يكون كرامة له وممالة على الغض من قدره، ولم يرس
من عرائر النفوس أن يسوءها القدح فيها ونحط من مزاياها ومواجهتها
بالبقرة والكراهة

غير أن الخلافة الإسلامية مسألة عالمية لا تورن بميران واحد، ولا يؤتم فيها
برأي واحد ولا بحق واحد وقد يضحى في سبيلها بالعظيم والعظماء، إن
تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء..

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى في ميران علي هي العائق الأول في سائر
الموازن، ومنها ميران النبي صلوات الله عليه

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبية في قريش وفي القبائل العربية عامة، بعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة، وكرامته أن يصور للإسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصابة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين وقد رضى في سبيل هذا المقصد الحكيم، أن يجعل بيت أبي سفيان صوا للعبة في أمار الأحنين إليه، وأصهر إلى أبي سفيان وبذ ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبه، وربما حسر لديه أن تنول الخلافة إلى علي بعده إذا شاء المسلمون ذلك، ولكن على أن تكون خلافته اختياراً مرضياً كاختيار غيره من أنصاره وأصحابه، ويستوى منهم البقير والسعيد

ولم تكن الحكمة النبوية هي وحدها التي تدبى إثارة العصبية وتصوير الإسلام للعرب وللناس عامة في صورة السيادة الهاشمية، بل كانت الدعوة كلها في صميم أصولها تدبى هذا الذي أنته الحكمة النبوية وتحبته غاية ما في وسعها احتسابه. لأن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، تشمل الأمم كافة من عرب إلى عجم ومن مشرق إلى مغرب، وتقوم في أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاصلة بينهم إلى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق. فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة، وأن يقام الحكم على هذا التفصيل.

وإن أحق الناس أن يعطى إلى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين رعموا أن وراثته الخلافة في بني هاشم حكم من أحكم الله وضرورة من ضرورات الدين.

فلو أنها كانت حكماً من أحكام الله، لكان أعجب شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور، وأن يختم القرآن وبس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت

ولو أنها كانت ضروره من ضرورات الدين، أو ضرورات القضاء، لعدت في الدنيا كما نفذ القضاء اسبرم، وحبطت كل خلافة تمارعها كما تحبط كل بدعة تناقص السنن الكونية

فلا النصوص الصريحة، ولا دلالة الحوادث على الإرادة الإلهية مما يؤيد أقوال الغلاة عن ترجيح الخلافة بالقرابة، أو حصر الخلافة في الأسرة الهاشمية

وهذا هو العائق الأول الذى حال بين على وبين الخلافة ولا قدرة له عليه، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة، وذكره الفاروق حين قال «إن فريشا اختارت لنفسها فأبنت أن تجمع لبى هاشم بين النبوة والخلافة»

* * *

ويرى بعض المؤرخين، أن فريشا كانت تحقد على الإمام وسحبه عن الخلافة لعدة أخرى تفتقر بهذه العصبية التى أوقع التنافس بين بيوتها وبين بنى هاشم، فقد بطش الإمام بنجر من حلة البيوت القرشية فى حروب المسلمين ولمشركين، وقتل من أعلام بنى أمية وحدهم عتبة بن ربيعة حد معاوية، والوليد بن عتبة خاله وحبيلة أخاه، وجميعهم من قتلاه فى يوم بدر عدا من قتلهم فى الوفائع والعروات الأخرى، محفظ أقاربهم له هذه الثرات بعد دخولهم فى الإسلام، وزادهم حقدا أنهم لا يملكون الثأر من قتلاهم من الكفار وكانت حاله بعد تلك امدة كما قال ابن ابى الحديد « كأنه حاله لو أصغت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه، من يظهر ما فى السعوس وهيجان ما فى القلوب، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والعتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته فى أسلافهم وأبائهم، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله»

وقد علم الإمام هذا من قريش، عندما ينس من موته وابتلى بالصريع والدخس من كندها، فقال « ما لى وقريش؟ أما والله لقد قتلتم كافرين ولأقتلهم مفتوبين والله لأبعلن الباطل حتى يطهر الحق من خاصرته فقل لقريش، فاصبح صحيحها»

ولو أن قريشا وادعته فى سرها وجهرها، ووقعت بينه وبين منافسيه على الخلافة لا تصده عنها ولا تدفعهم إليها، فقد كانت تلك عقبة أى عقبة

فأما وهى تحاربه بعصبيتها وتحاربه سحولها، فتت فى العقبة التى لا يدلها إلا بحرب أقوى من حرب قريش بعد وفاة النبى صلوات الله عليه ولم يكن حرب قط أقوى يومئذ من فريش فى أرحاء الدولة الإسلامية بأسرها

* * *

وقد سبوا الإمام إلى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم أبو بكر وعمر وعثمان
فإن نظرت إلى عائق العصبية الذي قدمناه، فلا يرى شيئاً أقرب إلى طبائع الأمور من
سب هؤلاء الثلاثة بأعيانهم إلى ولاية الخلافة بعد النبي عليه السلام، لأنهم أقرب الناس
أن يحتارهم لمسمون بعد خروج لعصبية الهاشمية من مجال لترجيح والترشيح
فيس أقرب إلى طبائع الأمور في بلاد عربية إسلامية من اتجاه الأنظار إلى
مشيخة الإسلام هي السن والوحاهة والسابقه الدينية، لاختيار الخليفة من بينها
على السنة التي لم تتغير قط في تواريخ العرب الأقدمين، ولم يعيرها الإسلام
بحكم لعادة ولا بحكم الدين

ولم يكن الإمام عبد وفاة النبي من مشيخة الصحابة التي تنول إليها الرئاسة
بداية بين ذوي الأسان، ممن مارسوا الشورى ونزعامة في حياته عليه السلام
لأنه كان يومئذ في حاور الثلاثين بقليل وكان أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا
في حور النبي بصع عشرة سنة قبل ظهور علي في الحياة العامة، وهم يشيرون
على النبي ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوقيير والولاء
والعائق الذي قام بين علي وبين الخلافة هو في طريق هؤلاء الثلاثة اسابقين
تمهيد وتقرير.

ونعني به عائق العصبية الهاشمية

لأن قريش لا تنفس على بني تيم، ولا بني عدي، ولا بني أمية هي رئاسة
عثمان خاصة كما تنفس على بني هاشم، لا تحتتم لهم النبوة والخلافة

* * *

والإمام نفسه لم يفته أن يدرك هذ بثاقب بصره، حين قال وقد تحاورته
الخلافة للمرة الثالثة بعد موت العاروق: «إن الناس يبظرون إلى قريش، وقريش
تنظر إلى بيتها فتقول «إن ولي عيكم بنو هاشم لم تخرج منهم أدا وما كانت
في غيرها من قريش تداولتموها ببيكم»

وإذا حتمع هذا لعائق إلى عائق السن والتوقيير للمشيخة المقدمة فهما
مبعدان للإمام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه

نعم إن فارق السن قد تقارب بعد موت العاروق، وبلغ الإمام الخامسة والأربعين، وسبقت به في المشورة سوابق ماثورات فأصبح العاروق بينه وبين من يكبره مزية تعير على العمل والجهد وتعفى مطبة الضعف والتواكل ولكن الذي كسبه بهذه المزية خسر به باردية المطامع الديوية ويأس الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه، واعتقاد المطامعين أنهم أقرب إلى بعض الأمل في بين عثمان وتقدم سنه منهم إلى أمر من الأمل في شدة الإمام وعسر حساب

وبقيت الحفرة بينه وبين قريش على حالها، لم يكف منها تقادم العهد كما قال ابن أبي الحديد.

وعلى هذه الحفرة في القبيلة كلها، دخلت في الأمر دخلة البواعث الشخصية التي لا يسلم منها عمر من أعمار بني الإسماعيل في زمن من الأزمان فقد اجتمع رهط الشورى الذين مدبهم عاروق لاختيار الخليفة من بعده، فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعين البيعة على عهدتهم وقيل إنه أسس مع الزبير وسعد بن أبي وقاص مدلاً موقوتاً إلى علي وأحرافاً موقوتاً عن عثمان، فسارع إلى السير وبيع عثمان وحاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق.

وكان عبد الرحمن بن عوف صهر لعثمان، لأنه زوج أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط.

ويفضي الحق أن يعال في هذا المقام إن بيعة عثمان قد تمت بإعوان بين المسلمين لم يبقه خلاف معدود، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هي التي خدلت عياً وقدمت عثمان عليه، إذ لو كانت هناك معارضة شديدة بين حريين متكهنين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن بن عوف وهو واحد من خمسة أو ستة إذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب.

* * *

ثم بويع الإمام بعد مقتل عثمان، فهل تحوت قريش عن حقوتها، أو نظرت إلى السياسة الهاشمية نظرة غير بطرتها؟

كلا

بل جاءت البيعة في المدينة يوم خفت فيها صوت قريش، وهبطت سمعة حكامها يوم أصبحت البيعة ثورة على قريش، تسكر عليها الأثرة بالملك والأثرة بالعنائم والأمصار. ويوم انقسم المجتمع لإسلامي قسّميه اللذين البسا وتداخلتا حتى فصلتهما أحداث قصصها انقسام في خلافة عثمان قسم يريد الرجعة إلى الخلافة والآداب النبوية وقسم يريد لمصطفى في الملك والدولة الدينيّة

فأى القسمين كان قسم على كائنا ما كان سعيه واحتجاده؟ وأية سياسة كانت بعيه على مشكلة الخلافة ضد بدايتها بعد وفاه النبي إلى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان؟

كل سياسة له لم تكن بتحديد به عن الخاتمة لمحتومة أقل محدد وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره، فهو على هذا لملتقى انتهى يتلاحق عنه الإسراع والإبطاء

وعلى هذا ينبغي أن يرجع إلى علة غير سياسة على لتعليل العوائق التي قامت دور مبايعته بالخلافة قبل انصديق والهاروق وعثمان

فهو غير مسئول عن نظرة لعصبيّة التي نظرت بها قريش إلى السيادة الهاشمية وهو غير مسئول عن سبّه التي تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوي السابقة في الجهاد والرعاية والأصالة بين ذوي الأسس والأخطار

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التي جعلت تأسيس الإسلام على أسرة وحدة هي لعالم كله أمر ملحوظ بالتوحس والإحجام ضد اللحظة الأولى

نعم قد يسأل الإمام عن علاقته بأساس وقدرته على تأنيهم بالآمال والمحاملات، ليأبسوا إليه ويرفعوا حجاب الحقوق بينهم وبينه، ويؤنروه على غيرهم بالخلافه، أملا في بزه واصمئسابا إلى حفاظته ورده

وقد يرد على بعض الخواطر، أن سياسة لدولة الدينيّة أو سياسة الإرضاء بالمصالح والوعود، كانت أجدي عليه من آداب لخلافة الدينيّة وأخلق بتمكيده أولا وأخرا بين قريش وهبائل العرب عامة

فهد في رأيهم مأخذ يرجع إلى شخصه وأعماله، ويسأل عنه كما يسأل الإنسان عن عمله وتصريف رادته وفكره. ولا يجوز أن يرجع به إلى حكم الحوادث القاهرة، وسلطان المصادفات التي لا قبل له بتعديلها

ولكن الواقع أن هذه السياسة - لم تكن لتجديه شيئاً بعد وفاة النبي، ولا بعد مقتل عثمان..

يبعد النبي عليه لسلام، ثم تكرر ذخائر الفتوح قد استعصمت في الأيدي وأنشأت في المجتمع الإسلامي طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها

فالذي يتدخل في سبيل الحكم سلاح هذه المصالح، إنما كان يباض بسلاح غير موحود بل كان يناصر سلاح ماصياً ينهرم أمامه لا محبة وهو سلاح الحماسة الدينية التي غلبت في صبرياتها الأولى كل سلاح

أما بعد مقتل عثمان، فأبعد الأمور عن النخيل أن يعلب على معاوية في سوق المصالح الدينية، لأن معاوية قد أهب لها أهبتها قبل عشرين سنة، وجمع لها أنصاره وكثر لها كنوره في بلاد وادعة بين جند مطيع

ولو توافرت لعلى مادة هذه السياسة، لما توافر له أعوانها ولمسعدون عليها فليس أقل نفعاً في هذا المصمّر من عوانه الدين ثاروا على سياسه المصالح وباءوا من أحلها بدم خليفة، واحتتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين. فلا يديرون أنفسهم إلى بهج كنهج معاربه ولو أرادوه

وأعلب الصن أن علياً كان يخسر بهذه السياسة أولئك الدين أحبوه، ولا يربح بها أولئك الدين أبعضوه

بعد حبسته آداب الخلافة إلى كل طبقه تكره استعلاء الحكم، ولا مطمع لها فيه فكل بلاد خلت من عصبة المرشحين للحكم، فقد كانت من حربه وشيعته بغير استثناء، فكان من حربه شعب ليمس ومصر وفارس والعراق، ونشأت في اليمن - وقد عهدت حكمه قديماً - تلك الطائفة السبئية التي غلبت في حبه حتى ارتفعت به إلى مرتبة التقديس، وانتشرت في مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والإمامية التي ظلت كامنة في تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال، وشذت الشام لأنها كانت في يد معاوية، وشذت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت

في يد طلحة والزبير، ولم يشد عن هذه القاعدة بلد من البلدان لإسلامية من أقصاها إلى أقصاها. فلولا أن سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القيادة، وإن العصب من القيادة كانوا كلما وحدوا في بقعة من البقاع وحد معهم البقع والاستغلال. لقد كانت محبة أولئك السواد أضع له من عصب معاوية أجمعين.

فأعلب الطن كما أسلفنا أن علياً كان يحسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة الديوية، ولا يكسب العصب التي ناصبته العداء وأيقنت أنه حائل بينها وبين ما طمحت إليه من الصولة والثراء.

وهذا على تقدير المقدرين أن علياً يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة وأنه لو اتبعها لكانت إحدى عليه.

وليست هي إحدى عليه لو اتبعها، ولا هو على اجتنبها بملوم.

وتقصي به هذه التعديرات جميعاً إلى نتيجة واضحة تلخصها في كلمات وحيرة ويعتقد أنها أعدل الأقوال في وصف تلك السياسة التي كثرت فيها مصادح النقد والدفاع.

فسياسة على لم يرضه هي غلطات كان يسهل عليه اجتنبها باتباع سياسة أخرى، وهي كذلك لم تلبه ما رب مستعصية، كان يعرف عليه بلوعها في موضعه الذي وضع فيه وعلى محراه إحدى حري عليه.

فليست هي علة فشل منتزع، ولا علة نجاح مدترع، أو هي لا تستدعي الفشل من حيث لم يحلق، ولا تستدعي النجاح من حيث لم يسلس له قياد.

وأيضا في سياسته فهما وعلماء، ولكن لم يرفها الحيلة العملية التي هي إلى العريرة أقرب منها إلى الدكاء.

فكان نعم الغليفة، لو صادف أو أن الخلافة

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغاثته عن المساومة والإسفاف. ولكنه لم يأت في أو أن خلافة ولا في أو أن منك موطد، فحمل أعباء النقيصين، وأخفق حيث يسعى أن يحقق أو حيث يعييه أن يبحج. وتلك أية الشهيد.

* * *



حكومته

كانت الدولة الإسلامية الناشئة على شفا الخطر في إبان الفتنة الداخلية بين عليٍّ ومعاوية . ولكن، وقيت منه لأن عوامس الأمان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامس الخطر الذي يهددها . وتتخلص عوامس الأمان في وفاءين اثنين

أحدهما، أن الإسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح إليها، مرسخت دعائمه وامتدعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره، وسكن إليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشموس عدله، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى إلى حكمه وهو باق على اعتقده.

وثانيهما، أن أعداء الإسلام كانوا في شاعل عنه بما أصابهم من الهمم وأحرق بهم من المخاوف، وربما صبح في الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح في كثير من الطوارق التاريخية الكبرى، وهي أنها لن تكون شرا محضا في جميع عوانبها ولا تخلو من الخير على قصد من دريها . فإن هذه الفتنة قد أعرت أعداء الإسلام بالانتظار، وأوقعت في روعهم أنهم غيور عن التحفر والوثوب الذي يشق عليهم جهده، وهم في تلك الحالة من الجهد والإعياء . فقدعت دوة الروم بهجمات صعيعة تلقاها معاوية بالحد والأساة، وأنهى انقوم عنه ببعض الإتاوات والبراقل.. فتراجعوا متربصين إلى أن يقصى الخلاف بين المسلمين قصاءه، وهم وادعون مكهيور شر القتال . فكان هذا الانتظار الخادح حائبا من حوبب الخير في الفتنة الإسلامية التي فاضت يومئذ بالشور

وعلى هذا انقصت أيام عليٍّ، وليس للحكومة الإسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفروج، أو سياسة الدفاع، أو سياسة المعاوضة والاستطلاع وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة عليٍّ، فهو من قبيل سياسة الحكم بيده وبين رعاياه، أو هو السياسة الداخلية كما سميها في العصر الحديث.

ومن اليسير أن تعرف سياسة الإمام بنفعه وبين رعاياه، بغير حاجة إلى الإطالة
في التعريف وسرد الأمثال

لأنها سياسة «يرحل الذي شاء القدر أن يجعله ودية للحلافة الدينية في
بصالتها الأخير مع الدولة الدنيوية

فمن اتخذ ما شئنا من حريقين متقابلين، هذا طريق على هي طريق الخلافة
المبرزة، حين تقبل الدولة «دينية» مقابلة الخصم الحصم أو النقيض للنقيض،
أو هي أقرب الطريقين إلى المساواة وأدناها إلى رعاية الضعفاء

فالباس في الحقوق سواء

لا محاباة ولا إحفاف بصعيف، وقد عمد إلى القطائع التي ورعت قبله على
المقربين والرؤساء، فانتزعها من القابضين عليها ورددتها إلى مال المسمين
لثورتها بين من يستحقونها على سبيل المساواة، وقال «والله لو وحدته قد تزوج
به النساء ومنك به الإمام لردته، فإن في العدل سعة ومن صدق عليه العدل
فالحور عليه أصيق»

ومرض الرفق بالرعية على كل حال، فلا يرهاق ولا استعلال ولو كانت الحكومة
هي صاحبة الحق في المال

همن وصاياه المكررة لولاته «أنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم
فإنكم حراس الرعية ولا تحصموا أحدا عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته ولا
تبيعن للناس في الحراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبدا،
ولا تصرين أحدا سوطا لمكان درهم»

ومن وصاياه هي تحصيل نضج والصدقات «... امسك إليهم بأسكينة والرفق
حتى تقوم بيدهم فتسلم عليهم، ولا بخدع بانتحية لهم، ثم تقور عباد الله
أرسلني إليكم ولي الله وحيثه لأخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل له في
أموالكم حق فتزبوه إلى وليه؟ فإن قال قائل لا، فلا تراجعوا وإن أنعم لك صنع،
فانطلق معه من غير أن تحبسه وتؤدعه أو تعسفه أو ترهقه، فحد ما أعطاك من
ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو ابن فلا تدخلها لا بإذنه فإن أكثره له
فإذا شئها فلا تدخل عيها دخول متسط عليه ولا عصف به ولا تنهرن بهيمة

ولا تفرعها، ولا تسوم صاحبها فيها، واضرع المان صدعير، ثم خبره، فهذا
اختار فلا تعرض لما ختاره، فلا تزل كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله في
ماله. فانقص حق الله منه، فإن استقالك فأقله».

وكرر دستوره في تحصيل الصرائب المقروضة على الناس، أن أسطر في
عمارة الأرض أبعد من البصر في استحلاب الصريبة فكان يكتب إلى واليه «نفقد
امر لخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم،
ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيان على الخراج وأهله وليكن
طرك في عمارة الأرض أبعد من بطرك في استحلاب الخراج، لأن ذلك لا تدرك إلا
بائعهم، ومن حلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم
أمره إلا قللا وإنما يؤتى خراب الأرض من إغوار أهلها، وإنما يغور أهلها إسراف
لولاية على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبور»

أما دستوره في الولاية والعمال، فحلاصته ما كتب به إلى الأشتر لنحى يقول
له «انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختيارا ولا تولهم محاباة وأثرة فبهم
حماة من شعب الحور والخيابة، وتوخ منهم أهل التحربة والحياء من أهل
البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام، فبهم أكثر أخلاقا وأصح إعراسا وأقر من
المطامع إسرافا، وأبعد في عواقب الأمور نظرا ثم أسبع عليهم الأوراق، فإن ذلك
قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وعنى لهم عن تناور ما نحت أيديهم، وحجة
عليهم إن خالفوا أمرك أو تلموا أمارتك، ثم تفقد أعمالهم وابتعث العبور من أهل
الصدق والعيون عليهم. فإن تعاهدك في السر لأمورهم حدوة بهم على استعمال
الأمانة والرفق بالرعية»

وعلى هذه العبادة باستطلاع أحوال الولاية والعمال، كان ينهى أشد ينهى عن
كشف معائب الناس، أو كما كان يقرر في وصية ولاته «وليكن أبعد رعينك منك
وأشأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس فإن في الناس عيوباً، إنوالى أحق من
سترها فلا تكسفن عما غاب عنت منها، وإنما عليك تطهير ما صهر لك».

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والحواسيس، فقال في
وصيته لمحمد بن أبي بكر «لا تدخل في مشورتك بخيلا يعدن بك عن الفصل
ويعدن الفقر، ولا جباب يصعوك عن الأمور، ولا حريص يرين لك الشره بالحق».

فإن البخل والحبس والحرص عرائر شتى يجمعها سوء الظن بالله إن شر وررائك من كان للأشرار قبلك ورياء ومن شركهم في الآثام فلا يكون لك بطانة، فإنهم اغوار الأثمة وبخوار الظلمة، وأنت واحد منهم خير الخلف، ممن له مثل أرائهم وبغائهم. وليس عليه مثل أصارهم وأوزارهم»

ولم ينكر قط شيئاً من سياسة التولية، ثم صبح مثله في عهده، على كثرة الإعراء حوله باصططع، التقية والمداواة والهوادة قليلاً مع الأقرباء ودوى الأخطار

ومن دغم غير ذلك، من باقديه في عصره أو بعد عصره، فيم هو أحد في المقارنة بالأشكال والحروف، دون البواص والعابيات.

إذ كان مما فين مثلاً بن علياً أقام عبد الله بن عباس على البصرة، وعبيد الله ابن العباس على اليمس، ومحمد بن أبي بكر ابن روحته على مصر وهم أقرباؤه وخاصة أهله، فهو بن يصب ما أكره على حكومة عثمان من إيثار الأقرباء بالولايات واقصاء الآخرين عنها

ولكنها كم قلنا مقاربه بالأشكال والحروف دون المواطن والغايات، لأن المقاربة الصحيحة بين اعممين تسفر عن فاروق بعيد كالغارق بين النقيض والنقيض.

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية في غير حكومة الإمام، ولم يكن للإمام معتمد على غيرهم بعد أن حاربتة قريش، وشاعت الفرقة والشعب بين أعوانه من أبناء الأمصار

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها، ولم يؤثروا بأبدى خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من عسانمه وأرزاقه بن كانوا يحاسبون على ما في أيديهم أعسر حساب، وكانوا التصييقه عليهم في المراقبه يتركرون ولا يانهم ويستعملون منها، كما فع ابن عباس حين هجر البصرة إلى مكة

وقد بلغ من حسابه للولاية أنه كان يحاسبهم على حضور الولائم التي لا يحمل بهم حضورها فكتب إلى عثمان بن حنيف الأنصاري عمله على البصرة «أما بعد يا بن حنيف، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة

فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان رتنقل إليك احفان وما طابت أسك تحيب إلى
طعام قوم عائلهم مجعو وعميهم مدعو، فانظر إلى ما تقصمه من هذا المقصم..
فما اشتبه عليك علمه فالقطه وما أبعدت بطيب وجهه فقل منه»

واستكثر على شريح قاصيه أن يبني دارا بثمانين ديناراً، وهو يبرق خمسمائة
درهم وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة هي القضاء وحرها
هي لدين

فلو أن الإمام اختص أقباءه بالولايات التي يحاسبون عليها هذا الحساب،
لما كان في اختصاصه إياهم مستبجح، عي ولا مستبجح مال فكيف وهو لا
يختصهم إلا بالقليل منها، ولا يختصهم به مدوجة عنهم أو يختصهم بهم دون
غيرهم في القدرة والأمانة»

فالمقاربة هه مقارنة أشكال وحروف، وكل ما توحى إلى الساقد بها أنه يذكر
الأقباء هنا والأقباء هناك.

وقد انقسمت طريق الخلافة، وطريق الدولة الدنيوية في كل أمر من الأمور على
عهد الإمام ولم تنقسم في مسألة الولاية أو مسألة الاستعلاء وكفى

وأكبر ما يذكر من انقسام الطرفين في عهده قيام الفكرة العالمية في جانب
العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية

فالدولة الدنيوية تشد أزرها بالعصبية الجنسية، والخلافة الدينية تشد أزرها
بالإخاء بين الشعوب وبطلان الفوارق بين الأجناس.

وقد كانت القبيلة من أنصار الإمام، تقاتل القبيلة من أنصار معاوية في سبيل
الرأي والعقيدة.

وكان أنصار الإمام أبدا من الفرس والمعاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين
قريش خاصة، وبين بني هاشم على الأخص، وبين قبائل العرب على التعميم.

وهذا لامتراج بين افكرة العانمة وبين إمامة عي أو خلافته، أقطع لأدلة
على الوحدة بين أرائه وأوار الخلافة فإذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذاك، أي كانت
السياسة المتخاة، وبالعامة ما بلغ نصيبها من السداد والصواب.

ولنا أن نعلم هذا الحكم الأساسي في كل شأن من شئون الحكومة، قصي به على في عهده أو عهود الخلفاء من قبله

فالعروج الأساسي هو قوام الحكومة الإمامية، كما ينبغي أن يكون وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الادمية وهي طاقة لها ما لها من حدود

حتى إلى عمر بن الخطاب بامرأة رابية يشتبه في حملها، فاستسقى الإمام فأفتى بوجوب الإبقاء عليها حتى تصع حبيبها، وقال له «ير كان لك سلعن عليها، فلا سلطان بك على ما هي بطنها»

وانتزع امرأة من أيدي الموكلين بإقامة الحد عليها وسأله عمر فقال «ما سمعت النبي ﷺ يقول رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المبتلى حتى يعقر» قال «بلى» قال «فهذه مبتلاة بني فلان فلعنه أتمها وهو بها» قال عمر «لا أدري» قال «وأنا لا أدري» فترك رحمها للشك في عقلها.

وأنى عمر بامرأة أحدها العنث، فمرت على راع فاستسقىته فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها ففعلت، فشاور الناس في رحمها، فقال علي «هذه مضطرة إلى ذلك فخل سبيلها»

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة في القصص وتفسير الشريعة

غير أنه قد حار عن هذه السنن في أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس

وذلك هو إخراج الروافض الذين عبدوه ووضعوه بصفات الالهة، وأنوا أن يتوبوا عن صلاتهم مره بعد مرة، وقدر إلههم أصروا على عبادهم وهم يحرقون فتحدوا من تعديه لهم بالنار دليلا على أنه هو المعبود إذ لا يعبد بالنار إلا الله

فهؤلاء المفسدون المعتوبون، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التي لا تقوم لها نظام على هذه الصلابة ولكن لإجراؤ بالنار صرامة لاتوجبها ضرورة العقاب، وليس في احتسابها خطر على الشريعة، ولا على النظام

إنما شفيع الإمام في هذه الصرامة أنه كان هو المستهدف لتلك لصلاله، وهو مصبة الريبة في الهوادة فيها. فهو يبره عدله عن كل من حدث تطن بالهوادة جميع نطبون وقد أخرج الدين الهوه وبهي عن قتال الخوارج الذين حكموا بكفره، إلا أن يفسدوا في الأرض أو يبدعوا بالعدون على يرى وفي هذا الانصاف بين مؤنهم ومكفرهم شفعة من تلك الصرامة في العقاب

وكان الإمام يذكر أبدا في حكومته أن لحقوق العامة لها شأن لا يسى مع حقوق الأفراد

ومن ذلك ما نقله الطبري عن بعض الأساييد، حيث قال «رأيت علياً عليه السلام خارجاً من همدان، فرأى فتية يقتتلان ففرق بينهما ثم مضى فسمع صرير باعوثاً بالله فخرج يحصر نحوه حتى سمع خفو نعه، وهو يقول «أناك العوث» فإذا رجل يلارم رجلاً فقال «ياأمير المؤمنين بعث هذا ثوبا بتسعة دراهم وشرى عليه ألا يعطيني معمورا ولا مقطوعا، فنيته بهذه الدراهم ليديها لى عابى فلرمته ولطمى» فقال «بدله» ثم قال «بيبتك على بلطمة» فأباه بالبيعة قال «دوك فاقصص» قال «إني قد عفوت ياأمير المؤمنين» قال «إنما أردت أن احاط في حقك» ثم صرير الرجل تسع دراهم، وقال «هذا حق اسلطان»

وكان يكرر هذا الحكم في كل ما يشابهه من أمثال هذا العدو، وهو أشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية في انقصاص

ويقال الكثير عن سماج لإمام في الحكومة وساسة ابرعيه مما يغنى فيه هذا الإحمال عن التوسع في التفصيل.

ولكن الذي لا يسى في سياق الكلام عن الإمامة والدعوة لعالمية، أنه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من لمدينة إني أرض غير أرض الحار وهو الحارى سليل الحاريزين

وقد اختار الكوفة، فكانت أوفق عاصمة للإمامة العالمية في تلك المرحلة من مراحل الدولة الإسلامية

لأنها كانت ملتقى اشعوب من جميع الأجناس، وكانت مثابة لتحارة بين الهند وفارس واليمن والعراق واشام وكانت العاصمة الثقافية التي ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية واربوايات فهي أليق العواصم في ذلك العصر بحكومة إمام، وما زلت الإمامة لاحقة بعلى ومحيطه به حيث تحول وحيث أقدم..

* * *



النبي والإمام والصحابة

أحاديث النبي عليه السلام في فصل عليٍّ ومحبته متواتره في كتب الحديث المشهورة. منها ما انفرد به وهو حديث الخيمة الذي رواه الصديق رضي الله عنه حيث قال: «رأيت رسول الله ﷺ خيم خيمة، وهو متكئ على قوس عربية، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين، فقال: معشر المسلمين أب سلم بن سالم أهـ الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولي لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الحداد لمولده، ولا يبغضهم إلا شقي الجد رديء الولادة».

ومنها ما اشترك فيه هو وغيره، وهو الذي رواه السيدة عائشة حيث سئلت: «أي الناس أحب إلى رسول الله ﷺ؟» قالت فاطمة: «فبين من الرجال» قالت: زوجها إن كان ما علمت صواماً قواماً».

وقد روى حديث في هذا المعنى، حيث سئل رسول الله عن أحب الناس إليه، فقال: «من النساء عائشة، ومن الرجال أبوها».

ولا تناقض بين الحديثين، إذ كانت السيدة عائشة هي التي تروى الحديث الأول، وتخرج من كلامها كما يخرج للمتكلم من عموم كلامه، أو كانت تروى عن أقرباء النبي من لحمه ودمه، فتقول ما تعلم عن غيرها.

وهذان نموحيان من الأحاديث النبوية في فصل عليٍّ ومحبته ومدرسته عند الله وبعيئه، وهي تعد بالعشرات.

وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث، وفي أساليبها، ويوجهونها حيث اتجهوا من الشيع للإمام أو التشيع عليه وهو شرح صويل لاهمنا منه هـا أن ينصر فيه فريقاً على فريق، أو يرجح مذهباً على مذهب، إذ ليس فهم الإمام موفوقاً على تعليق أي الفريقين وتقرير أي مذهبيين، وفهم الإمام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما يعنيه

فهمم يختلف الرواة في تأويل الأحاديث فإلى يسعك أن تحرم به من وراء اختلافهم، أن علياً كان من أحب الناس إلى النبي إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق

لقد كان النبي عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين فإني عجب أن يخص بالحب من بينهم بنسابة، كان ابن عمه الذي كفه وحماه، وكان ربيبه الذي أوشك أن يتبسه، وكان زوج ابنته العريضة عنده، وكان بدله في الفراش وكان نصيره الذي أبلى أحسن البلاء في جميع غزواته، وتلميذه الذي علم من فقه الدين ما لم يعلمه باشيء في سنه؟

حب النبي لهد الإنسان حقيقة لا حجة بها لي تأويل الرواة ولا إلى تفسير النصوص، لأنها حقيقة طبيعية، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف

ومما لا خلاف فيه كذلك، أنه عليه السلام كان لا يكتفى بحبه إياه - بل كان يسره ويرصيه أن يحبّه إلى الناس، وكان يسوره ويعصيه أن يسمع من يكرهه ويحطوه

بعث رسول الله علياً في سره يقبض الخمس، فاصطفى منه سبعة، وبعث أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك إلى رسول الله وكان المسلمون إذا قدموا من سفر يمدو بالرسول، فسلموا عليه وأبعوه ما عندهم، ثم انصرفوا إلى رحابهم فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه، ورض أصحابه أنه لم يسمعه فتأولوا الحديث واحداً بعد واحد في معنى كلامه فلما فرغ الأربع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال «ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟» عليٌّ مني وأنا منه وهو لي كن مؤمن بعدى» وقال لأحدهم في روايات أخرى، «أبغض علياً» قال «بعم» قال «لا يبغضه، وإن له في الخمس أكثر من ذلك، أي أكثر من السبية التي اصطفاها لا تبغضه، وإن كنت تحبه فإريد له حياً»

* * *

وبعث رسول الله علياً إلى اليمن، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إلى الصدقة ليريحوا إبلهم، فأبى فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم وتولى شكايته سعد بن مالك بن الشهيد، فقال «يا رسول الله لقيت من عليٍّ من الغلظة وسوء

الصحية ولتصويق « ومضى يعدد ما لفيه، حتى إذا كان في وسط كلامه صرّح رسول الله على حدة، وهنّف به «ياسعد بن مالك بن الشهيد بعض قوث لأخت علي؟ فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله»

وشكا بعض الناس مثل هذه الشكوى، فعلم رسول الله فيهم خسيباً يقول لهم «يأبها الناس.. لا تشكوا علناً، فوالله إنه لجيش في ذات الله»

ويلوح لنا أن انسحب عليه اسلام كان يحب علناً ويحببه إلى الناس، ليمهد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات، ولكن على أن يخبره الناس طواعية وحباً لا أن يكون اختياره من حقوق العصبية الهاشمية، فبه عليه السلام قد تقى هذه العصبية جهد اتقائه، ولم يحذر خطر عسى الدين أسد من حذره أن يحسبها الناس سبيلاً إلى الملك والدولة في بني هاشم، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ السبب وأقصى معظم بني هاشم عن الولاية والعمالة لبقي هذه «طئنة» ويدع الحكم للناس يختارون من يرصوبه له بالرأي والمشينة

فالتزم في انتمهيد لعلي وسائر ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة إلى التقديم وانوكاه، أرسله في سريه إلى فدك لعرو فحيلة عسى سعد اليهودية، وأرسله إلى اليمن لدعوة إلى الإسلام، وأرسله إلى منى ليقرأ على الناس سورة براءة وبين لهم حكم الدين في حج امشركين وزيارة بيت له، وأقامه على المدينة حين خرج للمسلمين إلى غزوة تبوك ولم يفته مع هذا كله أن يلمح الحقوة بينه وبين الناس وأن يكله إلى السن تعمل عملها مع الأيام، ويكلهم في شأنه إلى ما ارتصوه، عسى أن تسبح الفرصة لمريد من الألفة بينهم وبينه

هذه فيما يعتقد أصبح علاقه يتخيلها انفسه، وتسنى عنها الحوادث بين النبي وابن عمه العظيم

وربما كانت أصبح العلاقات المعقولة لأنها هي وحدها العلاقة الممكنة المأمولة، وكل ما عداها هو بعيد من الإمكان بعده من الأمان

فهو يحبه ويمهد له وينظر إلى غده، ويسره أن يحبه الناس كما أحبه، وأن يحسن الحين الذي يكلون فيه أمورهم إليه

وكل ما عدا ذلك، قليل بالممكن وليس بالمعقول

ليس بالممكن أن يكرهه به التقديم والكرامة

وليس بالممكن أن يحبهما له، ويمسى في سبيل هذا لعب حكيمته الصالحة
للدين والخلافة

وإذا كان قد رأى الحكمة في استخلافه، فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لا يجره
به في مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع

وإذا كان قد جهر به، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته
وعصيان أمره إنهم لا يريدون ذلك محضين، وإنهم إن أرادوه لا يستطيعونه بين
جماعة المسميين، وإنهم إن استطاعوه لا يخفى شأنه ببرهان مبين، ولو بعد
حين

فكل أولئك ليس بإمكان، وليس بالمعقول

ولما الممكن والمعقول هو الذي كان، وهو الحب والإيثار والتمهيد لأرائه،
حتى يقبله المسلمون ويتهياً له الزمان

* * *

أما العلاقة بين عليّ وسائر الصحابة من الحلفاء وغير الحلفاء، فهي علاقة
الزمالة المرعية والتدافس الذي بثوب إلى الصبر والتحمل والتقية

فليس فيما لدينا من الأخبار والملاحم ما يدل على ألفة حميمة بينه وبين أحد
من أصحابه المشهورين، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة وبغضاء.. بل ليس
في أخباره جميعاً ما يدل على طبيعة تحقد على الناس، وإن دلت أحياناً على
طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون

ومن المعلوم أن علياً كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقه، وأنه لم يزل
مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقل النبي عليه السلام إلى الرفيق الأعلى واحتج
المهاجرون على الأنصار في أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات الله عليه قال
«ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فلهوا»
عليهم من يكر الفلج به فالحق لا دونكم، وإن بغيره فالأنصار على دعواهم».

(١) فلجوا أي انتصروا عليهم

كذلك كان رأيه في الخلافة يوم يبيع بها لصديق، ثم يبيع بها لفرور، ثم يبيع بها عثمان

وجاءت قضية الإرث بعد قضية الخلافة في أوائل عهد الصديق، فباعدت الفرجة بين القلوب، وأطابت العرلة بين الأصحاب وخلاصة هذه القضية، أن فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا ميراثهما في أرض فدك وسهم خبير فذكر لهم لصديق حديث لسبي عن إرث الأنبياء، ونصه في روايته «بحر معاشر الأنبياء، لا نورث ما تركناه فهو صدقة بما يأكل آل محمد من هذا المال»

فغضب فاطمة، ولم تكلمه حتى ماتت ودفنها على بيل، ولم يؤد بها أب بكر. وقيل إن علياً تخلف عن البيعة ستة أشهر إلى ما بعد وفاتها ثم أرس إلى أبي بكر أن ائت ولا يأتنا معك أحد وتلقاه وعدده بنو هاشم، فقار «إنه لم يسمعنا أن يساعك يا أبا بكر إكار لعصيلتك، ولا بعاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حفا فاستبددتم به علينا»

ومع هذا اليقين الرسخ عنده في حقه وحق غيره، يرجع إلى سيرته وحادثته قدرى ولا ريب أنها أقن ما تشعر به النفس الإنسانية في هذه الحالة من البقرة واسفمة، ولا نجد في خطبه ومساخراته التي ذكر فيها الحلفاء السابقين كلمة تستعرب من مثله أو يتحاوَر بها حد الحجة التي تنهض بحقه بن انغريد أنه لرم هذا الحد ولم يتحاوَره إلى حمحة غصب تغلت معها بوار اللسان، ولو حارَزه لكان عابروه أصدق من لائيه.

* * *

وقد أعان أسلافه لثلاثة برأيه وعمله وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقله ولم يبد منه قط ما يتم على كراهية وضغ مكتوم ولكنه كان يأنف أن يكرر هذه الكراهية إذا رمى بها كما يأنف العزيز الكريم وفي ذلك يقول من خطاب إلى معاوية «ذكرت إيطاني عن الخلفاء وحسدى إياهم والبغى عليهم، فأما البغى فمعاد الله أن يكون، وأما الكراهية بهم فوالله ما أعترى للناس من ذلك»

وأولى أن يقال إن دلائل وفائه في حياتهم، وبعد دهابهم، كسب أظهر من دلائل حفاؤه فإنه حصن بن أبي بكر محمدا وكفيه بالرعاية ورشحه للولاية، حتى حسب عليه وأطلقت الألسنة بانتقاده من أحله، وقد سمي ثلاثة من أبنائه بأسماء الحلفاء الدين سيفوه، وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان.

ويخطى حدا من يتخذ فتواه في مقتل الهرمران دليلا على كراهيته لعمر أو بقمة معه في أبنائه فقد أسرع عبيد الله بن عمر إلى لهرمران، فقتله انتقام لأبيه، ولم يتصر حكم ولي الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه. فلما استعفى في هذه القصة اعترف بالعصا من معه، ولم يعير رأيه حين تعير رأي عثمان، فأعفه من جريرة عمله لأنه هو الرأي الذي استمده من حكم الشريعة كما اعتقده وتحرره، وبهذا الرأي إن قاتله عبد الرحمن بن ملجم، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحدا غيره لمظنة المشاركة بيده وبين رفقائه في التاصر عليه.

وانك لن تجد إنسان أعرف مانعه، ولا أصون له ممن يتذكره في حومة الحرب، ويرى أن انتذكير به يسرع السلاح من الأيدي، ويعو، بالخصمين المتناجزين إلى الصفاء والإخاء.

فما حارب على عدوا له سابقة مودة به إلا أن يذكره بتلك السابقة ويستبعد بالصدقة الأولى فيها على العداوة الحاضرة.

ومن ذلك موقعه مع الربير وطلحة في وقعة الحمر، وهم ملحد في جريه رائكار بيعته.

فخرج حاسرا لا يحمي بدرع ولا سلاح، وبأدى.

سارير، أخرج إلى فخرج إليه شاكا في سلاح، وسمعت السيدة عائشة نصحت وأحريه. إن كان خصم على مقصيا علمه بأسموت كائن ما كان حظه من الشجاعة والخبرة بالنصال.

فلما تقابل على بالربير اعترف، وعاد على يسأله «ويحك يربير ما الذي جرحك؟»

قال «دم عثمان»

قال: «قتل الله ولانا بدم عثمان»

وحمل يذكره عهوده وعهود رسول الله، ومنها مقالة النبي «والله ستقاتله وأنت له ظالم»

فاستغفر الربير وقال: «لو ذكرتها ما خرجت»

* * *

ولما وقف على حثّة طلحة بكى أحر بكاء، وحجر يمسح التراب عن وجهه وهو يقول «عزيز على أن أراك أبا محمد محمداً تحت نجوم السماء» ويتمى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة

والمودة عند فارس كعلى عهد محفوظ وموثق مذكور، إن هاتها أن تكون حبان قلب أو ألفة شعور.

ويخيل إليا أنه لم يروق قط صداقة الألفاء الذين يرعاهم وبرعونه لأنه يحبهم وبحبونه، ولكنه عامل أساس وعاملوه على سنه العهود ويدر القروسية، فلم تر بيته وببيهم إمارة إلى سلاح مفيد أو سلاح مشهور

ومثل على لا يروق صداقة الألفاء، لأنه من أصحاب المزيا التي تعرى بالمفاضة أو بالحسد ولا تحميها المنفع ولا امسايرة والمدارة

فهو شجاع، عالم، بديع، دكي، موصول النسب بأعرق الأرومات، فإن لم بحسد هذا، فمن يحسد؟

وان حسد فم الذي يفس من عرب حاسديه؟ وما ادى معنى بهم لى القصد فى عدائه والتأليب عليه؟

إنهم يستبعدون يومه فى الإمارة واسلطان، وإذا استقربوا، يومه فى الإمارة والسطان فلا مطمع لهم فى النفع على يديه وهو قوام بالفسط على الأموال والحقوق، منصبيه إدى منهم نصيب المحسود الذى لارجاء له فى هواة من حاسديه، وليس أحقد من الناس على صاحب عطمة لم يصمعوها فى نفعه ولم يزالوا على طمع فى النفع من خصومه، وبلينه بهم أكبر وأدعى حير لا يصططع الدهان ولا بمعهد معهم إلى لختل والروعان. وعلى أنه لو دامهم وراوعهم لما اغتفروا له

دب العظمة النسي لا تحمها حمايه من طمع أو نكاية أو كما قال الحكيم العربي
«إن نسي أنه أسد لم يمسوا أنهم كلاب».

* * *

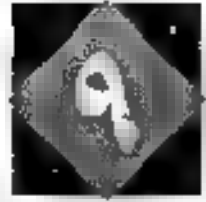
وهكذا فُرِصت على الرجل العظيم صربية لعظمة الغريبة هي ديارها وبين آله
وأبصارها

والعلاقة بينه وبين كرام لصحابة، كانت علاقة الرمانه انتى يدوب هيه
الواحب مناب الألفة..

والعلاقة بينه وبين الخصوم، كانت علاقة حسد غير مكثوف، وبعض غير
مكتوم

والعلاقة بينه وبين سواد العامة، كانت علاقة غريباء يجهلون ولا ينفذون إلى
لبابه، وإن قاربه أناس معجيين، وياعده أناس مافرين
وتلك أيضا آية الشهيد

* * *



ثقافته

أسمة الخلق أقلام الحق.

كلمة سائغة ليس أصدق منها إن صدقت، وهي صدق في كثير من الأحيان ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكيمه من هذه الكلمات التي ينقلها لسان عن لسان ويلقاها حبر عن حيل، فيخيل إلينا أنها خاطر عابر يسمع ويستملح ويشفع له القدم فيعمله كرامة له كما نقب السمين والعت أحياء من رقاد المشب، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد ولا يصير على مراعاة العلم والقياس، ثم نعرضه «نفاقاً على العلم وافتقاراً» فإذا به قد احتس من النقد التحسير ما لبست تحتمله آراء «علماء وقضايا الحكماء» وإذا بالخطأ في هذه «بقولة اشائعه أو في هذا اللقب لمرتحل أول من كل خطأ يحصى على كلام مخوق

من هذه الألقاب الشائعة، لقب الإمام الذي اختص به على سائر جميع الخلفاء الراشدين، والذي يطلق إن «طلق فلا يصرف إلى أحد غيره، بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه اسمة من سابقه ولاحقه

ولم وليس هو بقر في الإمامة بجملة معانيها؟

ألم يكن الصديق إماماً كعلي؟ ألم يكن الفاروق إماماً كعلي؟ ألم يكن عثمان إماماً كعلي؟ ألم يكونوا خلفاء راشدين إذا قصدت الخلافة ان سدة بعد النبوة؟

بلى كانوا أئمة مثله، وسبقوه في الإمامة

ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير مزارع ولا شريك ولم يكسب لأحد منهم من يحمل علم الإمامة ليناص به علم ادوية «الدبوية» ولا أن يتحير بعسكر يقابله عسكر، وصفة تناونها صفة، ولا أن يصبح رمزا للخلافة يقترب بها ولا يقترب بشيء غيرها فكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس، ولكن الإمام بغير تعقيب ولا تدليل هو الإمام كلما وقع الاشتباه والالتباس

وبارك هو عبي بن أبي طالب، كما لقبه الناس وحرى لقبه على الألسنة. فعرفه به الطفل وهو يسمع أماريحه المبعومة في الطرقات، بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف

* * *

وخاصة أخرى من خواص لإمامة، يعرف بها على ولا يحاربه فيها إمام غيره وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر الإسلام فهو مشئى هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه ويدور فرقة في الإسلام لم يكن على معلم لها منذ نشأتها أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لمباحثها، تقول فيه وتره على قائلين.

وعد اتصلت الحلقات بيته وبين علماء الكلام والوحيد، كما اتصلت الحلقات بيته وبين علماء الفقه والشرعية، وعلماء الأدب والبلاغة فهو أساد هؤلاء جميعا بالسند الموصول..

أما الفرق التي جعلته موضوعا لها ومحورا لمباحثها، فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصير وأهل السنة فتكون قد ذكرت جميع الفرق الإسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير

هنا تشتبك الفروع وتتأشب الأقسام، فتري الفرقة الواحدة مريح من التصوف والسياسة، كالباطنية على اختلافها وقد تتراعى بها الفروع حتى تنصر إلى انقائين بمذهب اساب أو مذهب البهاء، وهم طرف مقطوع أو موصول، من بعض تلك الأصول

فالإمام أحق لقب به، وهو أحق الأئمة بلقب الإمام!

وقد كانت له آية من آيات الشهداء في كثير من صفاته، وكثير من معارض حياته، وطوارئ أوقاته

وكانت له في الإمامة آية أخرى من هذه الآيات.

فاية الشهداء أنهم يبخسون حقهم في الحياة، ثم يعطون فوق حقونهم بعد الممات

وهم يعرضون لنا عذائب الدنيا في إقبالها وإدبارها، كما قال الإمام رضى الله عنه «إنها إذا أدبرت عن إنسان سلبته محاسن نفسه، وإذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره»

وكذلك اتفق للإمام في صفة الإمامة، كما اتفق له في معظم الصفات فقرر أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه، وقل أن تحدث الناس بفصل لم يحلوه إياه، وقرر أن توجه الثناء بالعلم إلى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه

بحلوه ديوانا من الشعر فيه عشرت من القصائد، وليس بينها إلا عشرت من الأبيات تصح نسبتها إليه

وتحلوه عما سموه علم «الحفر» وزعموا أنه علم الحجوم والأزياج الذي يكشف من حوادث الغيب إلى آخر الزمان

وبحلوه مقامات تخلق من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف، ولا يعقل أن تظهر أشبه هذه المقامات قبل عصر الصناعة في أيام العباسيين وما تلاها

وبحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بها من عرائب البحت والاشتقاق

وبعض ما حلوه يريدونه قدرا ويرفعه شأنا ألا تصح نسبته إليه^١

وبعض ما بقى له غير مشكوك فيه ولا محتف عليه كاف لتعظيم قدره وإثبات إمامته في عصره، وبعد عصره

وعندنا أنه رضى الله عنه كان ينظم لشعر ويحسن النظر فيه، وكان يقدّر لشعراء بقد عليم بصير، يعرف اختلاف مذاهب القوم واختلاف وجوه المقابلة، لفصيل على حسب المذاهب، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم أنه سئ «من أشعر الناس؟» قال «إن القوم لم يجروا في حلقة تعرف العابة عند قصبتها فإن كان ولا بد فالملك الصلي»

وهذا فيما نعتقد أو تقسيم لمقاييس الشعر على حسب «المدارس» والأعراض الشعرية بين العرب فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثلة ولا يكون اتعميم بالتفضيل إلا على النعيب

بكنه رضى الله عنه لم يبرق ملكة الإحادة فى شعره، والنبي عليه السلام يرى ذلك حيث سأله أن يأذن لعليّ فى هجاء المشركين فقال: «ليس بذاك» وأحالهم إلى حسان بن ثابت، ودب له من يبصره بمثاب انقوم

وكل شعره الذى رجحت نسبته إليه من قبيل هذه الأبيات التى وصف بها قبيلة همدان فى رفعة صفين

ولما رأيت الخيل ترحم بالقنا	موارسها حمر البحر دوام
وأعرض نقع فى السماء كأنه	عحاحة دحر ملبس بقتنام
وبادى ابن هندى الكلاع وحمير	وكعدة فى لخم وحى حدام
تيممت همدان اذين هم هم	اذا ساب دهر جنتى وسهامى
مجاوبى من خيل همدان عصاة	موارس من همدان غير لئام
فحاصروا لظاه واستطروا شرارها	وكابوا بدى الهيجا كشر مدام
فلو كنت رضوانا على باب جنة	نقلت لهمدان ادخلوا بسلام

أو من قبيل هذه الأبيات

محمد النبى أضى وصهرى	وحمزة سيد الشهداء عمى
وحعفر الذى يمسى ويصمى	يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى	مبود لحمها بدمى واجمى
وسبط أحمد ولدائى منها	فأبكم له سهم كسهمى
سبقتكم إلى الإسلام طرا	صغيرا ما بلغت أوان حلمى
وصبيت الصلاة وكنت فرد	فمن ذا بدعى يوما كيومى

وقد نظم شعرا ولا ريب، كم يدل سوابهم النبى عليه السلام أن يأذن له فى هجاء من هجأهم، ولم ينسب إليه شعر. صح أو لم يصح، أحوذ مما قدمناه وليس فيه ما يسلكه بين المصنفين من الشعراء، أو يلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء

أما كتاب الحفر أو علم «حفر» فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل في جميع ما يحوره وأصافوا إليه فمثن على في تقوئه وفصله، لا يشتغل بعلم مرعوم هو السحر القديم بعينه، ولبس هو مما يليق بورعه ولا ذكائه وقد بهى وشدد النهى عن تعلم الحجوم واستطلاع اللعب سأمثل هذه العلوم، ومن لمحق ابدى لا خلعة فيه من الشك عندما أن «البوءات انتى جاءت في نهج البلاعة عن الحجاج بن يوسف وقتله الربيع وعاراب التقار وما إليها» هي من مدخول الكلام عليه. ومما أضافه المسامح إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بر من قصير أو طويل

ولا نحزم مثل هذا الجرم في أمر المقامات التي خلت من بعض الحروف، لأن العقس لا يمنعها قطعا كما يمنع استطلاع اعيان المفصل من أرياح الحجوم، ولكننا نستبعد حدا أن تكون هذه المقامات من كلام الإمام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن، وحاجة النسبة هنا إلى سد أقوى من السد الميسر لنا بكثير

وكذلك نستبعد أنه قال لكتابه يظهر علمه بعريب اللغة «ألصق روائفك بالجوب وخذ المرير بشاترك واحمل حنودريك إلى قيهلى حتى لا أبقى نفية إلا أردعتها بحماسة حلحلائك»

أي «ألصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بين أصابعك واحمل عيسيك إلى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة إلا وعيتها في سواد قلبك»

فإن الولع بإظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف في صدر الإسلام، ولم يلتفت الناس إلى ادعائها إلا بعد استعحام العرب وبصرة العارفين

ومث هذا، ما نسبوه إليه حيث رعموا أنه قال «ما تربعلبت قط» أي ما شربت اللبن يوم الأربعاء و «ما تسبتسمكت قط» أي ما أكلت السمك يوم السبت «وما تسرولقمت قط» أي ما لبست السراويل قائما إلى أشباه هذه المخترعات التي تستغرب لفظا ومعنى واعتقادا من رحل كالإمام في صدر الإسلام

غير أننا نسقطها جميعا، فلا نسقط بها فصلا ترحح به موازين الإمام في حساب الثقافة بل نحسبها فضلا عن شيئا. وسقطها فيبقى له بعدها السهم الراجع في تلك الموازين.

تبقى به الهداية الأولى في التوحيد الإسلامي، والقضاء الإسلامي، والعقيدة الإسلامية وعلم النحو العربي، وهن الكتابة العربي مما يجوز لنا أن نسميه أساس صالحا لموسوعة المعارف الإسلامية في جميع العصور، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول من الإسلام.

وثبقى له مع هذا فرائد الحكمة التي تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية، على تباين العصور

ففي كتاب نهج البلاغة، فيص من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشغل بالعقائد وأصول النأله وحكمة التوحيد

وربما تشكك الباحث في نسبة بعضها إلى الإمام بعلبة الصيغة الفلسفية عليها وامترحها بالآراء والمصطلحات التي اقتبس بعد ذلك من ترجمة الكتب الإغريقية والأعصية، ولا سيما الكلام على الأضداد والمبانيع ولعدم والحدود والصفات والموصوفات، ولكن الذي يفرؤه الباحث ولا يشك في نسبه إلى الإمام أو في جوار نسبه إليه قسط واف لتحقيق رأي لقائلين بسبق الإمام في مصم علم الكلام، وعترف امعترفين له بالأستادية الرشدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات وهو على جمته خير ما يعرف به المؤتمر ربه ويحزه به الحالق في كماله، ومن أمثله قوله «احمد لله الذي لم يسبق له حال حالا فيكون أولا قبل أن يكون اخرا، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا، كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وكل عرير غيره دليل، وكل قوى غيره ضعيف، وكل مالت غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلم، وكل قادر غيره يقدر، ويعجز، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات، ويصمه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد عنها، وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأحسام، وكل ظاهر غيره باطن وكل باطن غيره ظاهر، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب رما، ولا استعانة على من شاور ولا شريك مكاث، ولا صد مفاقر، ولكن خلانق مربوبون وعباد داخرون - أي ضارعون - لم يحلل في الأشياء فبقال هو فيها كاث، ولم ينأ عنها فبقال هو منها بائن، لم يؤده خلق ما ابتدا ولا تدبير ما ذرا، ولا وقف به عجز عما خلق، ولا ولحت عليه شبهة فيما مضى وقدر، بل مصاء متقن، وعلم محكم وأمر مبرم.»

أما القصاء والفقه، فالمشهور عنه أنه كان أقصى أهل زمانه وأعلمهم بأفقه
والشريعة أو لم يكن بينهم من هو أقصى منه وأفقه وأقدر على إخراج الأحكام
من القرآن والحديث والعرف المأثور وكان عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم
مسألة من مسائل القصاء العويصة، قصية ولا بأساً حسن لها لأنه كان في هذه
الأمسائل يتجاوز التفسير إلى التشريع، كلما وحب الاحتهاد بالرأي الصائب
والقياس الصحيح .

وفي أخباره، ما يدل على عمه بأدوات الفقه كعلمه بخصوصه وأحكامه ومن
هذه الأدوات علم لحساب الذي كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف في
معضلات المواريث، لأنه كان سريع الفطنة إلى حيله التي كانت تعد في ذلك
الرمس الغارا تكدر في حلها العقول، فيقال إن امرأة حامت إليه وشكت إليه أن
أخاها مات عن ستمائة دينار، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد . فقال
لها لعله ترك زوجة وابنتين وأماً واثني عشر أخاً وأنت؟ فكان كما قال .

وسئل يوماً في أثناء الخصبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وبنتين فأجاب من
هوره صار ثمنها تسعا وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية، لأنه أفتى بها
وهو على منبر الكوفة

وفي هذه الإجابات، دليل على الذكاء وسرعة البديهة فصلا عن الدلالة
الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب

وإذا قيل في قصائه إنه لم يكن أقصى منه بين أهل زمانه، صح أن يقال في
علم النحو إنه لم يكن أحد أوفر سهماً في إنشاء هذا العلم من سهمه وقد تواتر أن
أبا الأسود الدؤلي شكاً إليه شيوع اللحن على ألسنة العرب، فقال له اكتب ما أُملي
عليك، ثم أملاه أصولاً منها إن كلام العرب يترك من اسم وفعل وحرف فالاسم
ما أُنْبأ عن اسمي، والفعل ما أُنْبأ عن حركة اسمي، والحرف ما أُنْبأ عن معنى
ليس باسم ولا فعل وإن الأشياء ثلاثة ظاهري ومضمري، وشيء ليس بظاهر ولا
مضمري . وإنما تتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمري . يعني اسم
الإشارة على قول بعض النحاة، ثم قال لأبي الأسود أنتج هذا النحو يا أبا الأسود
فعرّف العلم باسم النحو من يومها

وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند إلى المقابلة بين اللغات الأخرى في اشتقاق أصولها النحوية، ولا سيما السريانية واليونانية ولكن الروايات العربية لا تنتهي بنا إلى مصدر أرحح من هذا المصدر، وغيرها من الروايات الأحبية والعروض العلمية لا يسمع عقلا أن يكون الإمام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربي من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التي تعيش بكوفة وحواضر العراق والشام، وهم هناك غير قليل، ولا سيما السريان الذين سبقوا إلى تدوين نحوهم، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية

وليس لإمام على أول من كتب انرسائس، وألقى العظات، وأطال الخطب على المنابر في الأمة الإسلامية

ولكنه ولأرب أول من عالج هذه المسون معالجة أديب، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذي يقتدى به في الأساليب لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلعين لاصياغة مشئيين ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن الأداء وصناعة التعبير، ولكن الإمام عينا تعلم الكتابة صغيرا ودرس الكلام البالغ من روايات الأسن وتدوين الأوراق، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التدوين والتجويد فاستقام له أسلوب مطبوع مصوغ، هو فيما يرى أول أساليب الإنشاء المعنى في اللغة العربية، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة انقرآن والاستفادة من قسوته وسياقه، وتأتى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البدوة ومن تهذيب الحضارة، ومن أنماط التفكير المحدد الذي أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية فديوانه الذي سمي «سهج البلاغة» أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يسمع اشتماله على جزء صحيح النسبة إليه صحيح الدلالة على أسلوبه وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب من الإقناع من دلالة الأسامي التاريخية، لأن طابع «الشخصية العلوية» فيه ظاهر من وراء اسطور ومن ثانيا الحروف، يوحى إليك حيثما وعيته أنك تسمع الإمام ولا تسمع أحدا غير الإمام، ويعر عليك أن تلمح فيه عراة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام

على أنك نبالغ ما نبالغ في تحييص المنحول وغير المنحول من أقوال الإمام ومن فنون ثقافته العامة، ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا - بن توجب علينا - أن نسأل: كيف يتسنى العلم بهذا لأي كان من الناس في مثل ذلك الزمان؟

والسؤال لا يد منه، ولا ينظر قارباً من قراء تاريخ الإمام لم يخطر هذا السؤال بباليه ولم يرد علي لسانه

ولكن لا بد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الحواب عنه بعد ذلك فابعدت عليه أننا نبالغ في تحريج البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين. لكن البداوة لم تكن في الواقع معرولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك انحرله التي تخطر لنا بلوهله الأولى، بعد كانت علي اتصال بعقائد الهند وفارس والروم، وكانت للمعارف الإنسانية أشعتها التي تتخلل الحرية العربية من قديم العصور وحسبت من أمثلة ذلك، مثل واحد في معسكر الإمام نفسه يعنى عن الأمثلة من قبيله وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء، وهو يهودى ابن زنجية مولود في بلاد اليمن، ومذهبه الذي اشتهر به هو مذهب الرحمة الذي يجمع فيه بين قول ايهود بطهور المنقذ من أبناء داود، وقول غيرهم بطهور الإله الذي يتقمص جسم إنسان، وقول النصارى بطهور المسيح، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من أقرباء الملوك والأمراء..

هذه عقيدة لا تظهر من رجل يمى من أهل الجزيرة، إذا تحلبت في الحرية في حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفارس والروم وبني إسرائيل، وأن الأمة العربية تحلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية أو طريق المحاكاة الاجتماعية أو طريق الدراسة والسماع.

وقد كانت عاصمة الإمام في الكوفة وكانت مئاة انغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة في العالم بأسره، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بحوارف أناس كانوا ينظرون في كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء في سيرة عمر بن الخطاب ومنهم من كان ينظر في المحرم على طريقة الفرس والروم، وحذر بعض هؤلاء الإمام أن يسير إلى حرب الخوارج في طالع كوكب من الكواكب المسحوسة فقال له «أترعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء؟ فمن صدق بهذا فقد كتب القرآن، واستعفى عن الاستغابة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه»

* * *

ثم أقبل على الناس بالصبح والموعدة، قائلاً «إياكم وتعلم انحدوم، إلا ما يهتدى به في بر أو بحر فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنحمة كالكاهن والكهن كالساحر، والساحر كالكاfer، والكاfer في ليلته».

وقد لبث على بن أبي طالب رهاء ثلاثين سنة منقطعا أو يكاد ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة، متفرعا أو يكاد يتفرع لعنون البحث والدراسة يتأمل كل ما سمع، ويراجع كل ما قرأ، ويعرف كل ما يعرف ممن يلقاه، ويستطلع أبعاد وآراءه وقضاياها فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلا في بلاد الإسلام على تلك الأيام ففيه ولا ريب لكافية للعقل اليقظان ولبصيرة الواعية أن تفهم ماقد فهمه الإمام، وأن يثبت ما أنبته بهج البلاغة من الحواطر والأحكام

* * *

على أن هذه العيون من الثقافة - وجتها - بما تعظم بالقياس إلى عصرها والجهود التي بذلت في بدايتها

محصة الإمام من علم النحو - مثلاً - عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المطلقات الصحاح التي دونها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه

وهكذا يقال في الحساب والمسائل العلمية التي من قبيله، فلا يحور لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر وهي في ابتدائها أصعب حدا منها في أطوارها التي لحقت بها بعد نمائها واستعاضة البحث فيها.

أما من الثقافة الذي يقاس بمقياس كل زمن، فإنما هو عظيم في جميع هذه المقاييس، فليس الفوارق بين البدايات منه والنهايات، فذلك هو في الكلم الجامعة أو قرئد الحكمة التي قلنا إنها تسجل له هي ثقافة الأمم عامة كما تسجل له هي ثقافة الأمة الإسلامية، على تباين العصور

فالكلم الحوامع التي رويت للإمام طرار لا يقووه طرار في حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة

وقد قال النبي عليه السلام «علماء أمتي كأنيبي بني إسرائيل»

فهذا الحديث الشريف أصنف ما يكور على الإمام على في حكمته التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء.

فهى من طرار الحكم الماثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل اسائر وهو سليمان ابن داود

ويريد عليها أنها أيدع فى التعبير، وأوفر نصيبا من دوق الجمال، كقوله مثلا «نفس المرء خطاه الى أحله» أو قوله «من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة» أو قوله «المرء محبوه تحت لسانه» أو قوله «الحلم عشرة». أو قوله «من لان عوده كثفت أعصابه» أو قوله «كل وعاء يصير بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع» إلى أشباه هذه التعبيرات الحسان التي تحار فيها أى مرآياها أخص وأقوم صدق المعنى، أو بلاغة الأداء، أو حودة الصناعة

وبعض أقواله يصح بدلائل «الشخصية» التي تلام صاحب الفن الأصير، فتلبس معانيه لباسا من خولج نفسه وأحداث زمانه، كما قال «صواب الرأي بالدول يقبل بإقبالها ويذهب مذهبها» أو كما قال «ما أكثر لعبى وأمر الاعتبار» أو كما قال «شاركوا الذى أقبل عليه إرزق فيه أخلق للعبى وأحذر بإقبال الحظ عليه» أو كما قال «إذا هبت أمرا فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تحاب منه» أو كما قال «لا بقم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يصارع ولا يتبع المطامع»

وله عدا هذه الحكم التي تلوحت بألوان نفسه أو ألوان زمانه، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها، وتنقد إلى كل سامع يعط لها كقولها «كل معدود منقص وكل متوقعات» أو قوله «إذا كثرت الغدرة قلت الشهوة» أو قوله «فصل لأعمال ما أكرهت نفسك عليه» أو قوله «من نصب نفسه للناس إماما، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعهم نفسه ومزديها أحق بالإحلال من معتم الناس ومؤيديهم» أو قوله «لغقيه كل الفقيه من لم يعط الناس من رحمة الله ولم يؤسهم من روح الله ولم يؤمنهم من مكر الله». أو قوله «قيمة كل امرئ ما يحسنه» أو قوله «العاقل يصنع الشىء مواضعه» أو قوله الصبر صبران «صبر على ما تكره، وصبر على ما تحب» أو قوله «من ملك استأثر» أو قوله «الناس أعداء ما جهلوا». أو قوله «القراءة إلى المودة أحوج من المودة إلى لقراءة»

* * *

وله في المواضع المرتحلة كلمات هي أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة فلما حرج وحده لبعض المهام التي تردد فيها أصداره، قالوا له يشيرون إلى أعدائه «بأمر المؤمنين نحن نكفيهم» فقال «ما تكفوني أنفسكم فكيف تكفوني عبركم؟ إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها، وإسي اليوم لأشكو حيف رعيتي، كأسي المقرد وهم القادة، أو الموروع وهم النوزعة»

ورثي محمد بن أبي بكر حين بلغه مقتله على أنسى أصحاب معاوية فقال «إن حزنا عليه قدر سرورهم به، إلا أنهم نقصوا بغيبه ونقصا حبيباً»

فكل نمط من أنماط كلامه، شاهد له بالملكة الموهوبة في قدرة لوعي وقدره التعبير وهو ولا شك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأوتوا الحكمة وفصل الخطاب

وقد أخطأ «موير» Moyer المورخ الإجلالبي حين قال إن علياً حكيماً كسليمان، وهو مثله حكمته لغيره يعني أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالصيحة، فإن «موير» أحجى أن يفرق بين عمل الإنسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه ولا شك أن علياً كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصحين بما يصح به أساساً. أما أنه ينتفع بحكمته، فالطبيب لا يقدر في علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بعبه فقد يكون الإخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء

ولا يعوتنا أن بعض هذه لصائص، قد نسب إلى قائله من الأوتار غير الإمام رضي الله عنه، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى إلى الصحيح والمصحول من كلام الإمام الذي جمعه الشريف الرضي في «نهج البلاغة» وفرع من جمعه بعد مقتله برهاء أربعة قرون، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب إلى دراسة أدبية ليست من أعراسها الخاصة في تعريف بعقريّة الإمام فحسبنا أن أسلوب الإمام معروف في بعض ما نبت له من رسائله وخطبه، وإن طابع هذا الأسلوب شائع في بعض انكتاب لا تقدر فيه كلمة طاهرة التلحق هنا أو كلمة ظاهرة الإقدام هناك، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصياغة أو اختلاف التفكير فنحن لا نخطئ أن نرى في هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حياء، وتقطع حياء، كايوحدة التي تراها بغير انقصاع في كتب الحافظ وابن المقفع وعبد الحميد وهذه اوحدة وحدها مغنية لنا في تبين ثقافة الإمام،

أو تذوق أسلوبه الذي لا تحظى فيه مرة جراحة البادية وصغر الحاضرة وحسن
الدهاء وامتزاج الصناعة بالطبع الذي لا تكلف فيه

ولا يتم القول في ثقافة الإمام على رضى الله عنه، ما لم تنممه بالقول في
نصيبه من الثقافة العسكرية أو من الحرب، الذي هو مصماره الأول ومصاد
شهرته لتي تبرر فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة، وكفاءة الماكن قبل كل
كفاءة

هجمة ما يقال في هذا الصدد، أن من الإمام العسكري هو من البطل المغوار
يناصر الأفراد ويدفع الجيش الذي هو فيه بقوة الشجاعة وإدكاء الحماسة
وتعزيز الثقة بين صفوفه، وأنه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم
وكيف يحتال على عدوه بما يحلح عليه ويفت في عصبه ومن حيله المشهورة في
توهين عزم عدوه، أنه أمر بعقر الجمل في الوقعة المعروفة باسمه لأنه كان علم
القوم الذين كانوا يلتفتون به ويثبتون بثبوتهم

وهذا كله من البطل المغوار الذي يعرق لعسكريون بينه وبين خطط القيادة
وفنون التعبئة وتحريك الجيوش.

ولم يرد له من أبناء الإمام في هذا الباب ما يحكم به على قيادته العسكرية
بهذا الاعتبار.

نعم إنه كان يقسم جيشه إلى ميمية وميسرة وقلب وظليعة ومؤخرة، وأشباه
ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفير على التحصيص.

وكانت له وصاياه المحفوظة في تسيير الجيوش وتدريب الجند ومعاملتهم
لسكان البلاد، ومنها قوله: «إذا نزلتم بعدو أو منكم، فليكن معسكركم من قير
الأشرف وسفاح الحبال، أو أنباء الأنهار، كيف يكون لكم رداء ودويكم ردى
ولتكن مفاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واحعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال
ومياكب الهصاب، لئلا يأتىكم العدو من مكان محافة أو أمن، واعلموا أن مقدمه
القوم عيوبهم، وعيرر المقدمة صلائعهم وإيكم والتفرق فإذا نزلتم فاسرلوا
حميعا وإذا ارتحلتم فارتحلوا حميعا، وإذا عشبكم الليل فاجعلوا الرماح كفة أي
محيطه بكم - ولا تذوقوا النوم إلا غمراراً أو مصمصاً».

ومنها قوله «ولا تسر أول الليل، فإن الله جعله سكناً وقدره مقام لا صعب»
ومنها قوله للولادة «بني سيرت حسوداً هي مارة بكم إن شاء الله، وقد أوصيتهم
بما يجب له عليهم من كف الأذى وصرف الشدي، وأنا أبرأ إليكم وإلى دمتكم من
معرفة لحيش إلا من حوطة المضطر لا يجد عنها مذهب إلى شعبه، فكلوا من تناول
مهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم، وكفوا أذى سفهائكم عن مصارتهم وانعزم لهم»
وهذه وما هو من قبيلها، سماهج موروثة أو أدب هو أقرب إلى نظام الإدارة منه
إلى خطط التعبئة وقادة الميدان

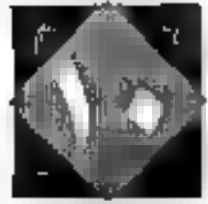
وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والسماهج هي وقعة صعين، لم تكن الوقعة
كلها إلا مساوشات محرم ودفع بين طوائف متفرقة في أوقات متباعدة كأنها
صرب آخر من صروب فن الحرب على طريقة الفارس الماض والبص المبرد هي
موقف المباررة أو في غمار الصفوف

* * *

وخلاصة ذلك كله، أن ثقافة الإمام هي ثقافة العلم المبرد والقيمة العالية بين
أجماهير في كل مقام

ونها هي ثقافة الفارس المحاهد في سبيل الله، يدور بين انقلم والسيف
ويتشابه في الجهاد بأسمه وتقواه لأنه باليأس زاهد في الدنيا مقبل على الله
وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله

فهو فارس يلاقى في الشجاعة ديبه وديبه، وهو عالم يلاقى في الدين
والدنيا بحدته وبحواه



فى بيته

خلاصة رأى الإمام فى المرأة أنها «شر كلها» وشر ما فيها أنه لا بد منها.

كان يرى بها قصائص خاصة تلحق بها غير لفصائل التى تلحق بالرجل ويحمد منه «مختيار خصال النساء شرر خصال الرجال: الزهو، والجبن، والنخس، عبادا كاست المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفض ما بها ومن يعنها، وإذا كانت حبابة فرقت من كل شيء يعرض لها»

والإمام صائر إلى رأى هذا فى امرأة من كلنا طريفيه، وهما طريق الحكيم الذى يحضر إليها على سنة لحكمه القديمة، وطريق العابد الذى ينظر إليها على سنة العبادة فى جميع لعصور ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حبيه قط عن مطرته العالبة عليه، وهى مطرة افارس المطبوع على أدب العروسية، ومنها التلطف بالمرأة والصنع عن عدوانها فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه، ولا عقل قط عن الوصية بها فى موطن يستدعى هذه الوصية ومن أمثلة وصاياه فى هذا المعنى خطبته بين حدوده قبل لقاء العدو بصفين، حيث يقول

«لا تهبحوا النساء بأذى وإن شتمن أعرصكن وسبين أمراءكم، فإيهن ضعيفات القوى والأنفس والاعقور، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإيهن لمشركات، وإن كان الرجل يتناول المرأة فى الحاهية بالقهر أى الحجر أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده»

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية، كما يظهر من غير حادث واحد ومن ذلك صبية السبى التى استولى عليها وبنى بها لساعتها، وجعلها قسمه من الخمس قبل تقسيمه فرأى بعض أصحابه فى ذلك ما شكوه إلى النبى عليه السلام من أحله وربما كان هذا سبب تحديره منها فى العزوات خيفة على الحيش من شواغلها، فكان يقوى لسرايه وحيوشه إذا شععها «اعربوا عن النساء ما أستطعتم» ويوصى فى أمثال هذه المواضع باحتسابها

غير أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تعنى عن سائر النساء، فلم يعرف له هوى لامرأة خاصة من سائنه غير الهوى الذى اختص به السيدة فاطمة رضى الله عنها

كرامه لمرزنتها عنده ومرتلتها عند أسبى وهو غير الهوى الذى تبعثه المرأة
بمغريات حنسها

كان حالى فى أصحابه، فمرت بهم امرأة حميلة، فرماها القوم بأبصارهم..
فقال رضى الله عنه «إن أبصار هذه الفحوص طوامج، وإن ذلك سبب هياحها فإذا
نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه قليلا مس أهله، فإبما هى امرأة كامرأة»

وعلى لحمه، يمكن أن يقال إن آراء الإمام فى المرأة هى خلاصة الحكمة
القديمة كلها فى شأن النساء

فهن شر لا بد منه ساهاق آراء الأقدمين، سواء منهم حكماء الهند واليونان أو
احكماء الدين نظروا إلى المرأة بعين الدين من أبناء بنى إسرائيل وأباء الكنيسة
المسيحية وأئمة الإسلام.

لأنهم كانوا جميعا يمجسوها بالشهوات لثى تثيرها عامدة أو غير عامدة، ويفوز
عليها تبعه لشور لثى تحم عنها بمكتها أو على الرعم منها، ولم تتغير هذه النظرة
بعض التعبير إلا فى لأزمه الحديثه التى نظرت فى استقلال التبعات على أساس «الحرية
الشخصية». فحاسبت امرأة بما تحيه، وأوشكت أن تداع فى تيرنتها من حداثتها

فمن السهو عن لحقيقة، أن تتحد آراء الأقدمين فى امرأة دليلا على بصيهم
من العبطة أو السكينة فى حياتهم البيئية لأنسا خلقاء أن تحسبهم جميعا من
الأسقياء المعدبين فى بيوتهم، وهو ما تأبه البدهة وتآباه أبناء التاريخ عن
كثير من الأزواج والزوحات العاهات

وليس من اللازم فى حياة الإمام خاصة، أن يستمد آراءه فى امرأة من حياته
البيئية فقد كانت تحاربه فى الحياة العامة مددا لا ينفد لهذه الآراء التى شاعت
بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتج إلى تحربة مكررة، وشاءت المعادير أن
تفصى حياة الإمام على والمرأة يد فى القضاء عليها، فكانت حياته العالية مهرا
لقطام التى قال فيها ابن أبى مياس المرادى

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة	كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقيسة	وصرب على بأحسام المسمم
فلا مهر أعلى من على وإن علا	ولا فتك إلا دون فتك ابن ملح

والذى يجرم به مؤرخ الإمام أن حياته البيتية خلت من شكاة لم يأفها الأرواح
فى زمانه، وأنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الروحية بين أمثاله

عاش مع فاطمة رضى الله عنهما، لا يقرر بها روحه أخرى. حتى ماتت بعد
موت النبى عليه السلام بستة أشهر. وهى رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لاشك
فيها. فقد كان النبى عليه السلام كما جاء فى الأثر نهار ليلته عيرة شديدة،
وروى عنه أنه قال وهو على المبرر مرة «إن بنى هشام بن المعيرة استأذنى
مى أن يكحوا ابنتهم على بن أبى طالب، فلا أدن، ثم لا أدن، ثم لا أدن، إلا أن يرد
على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى ويسكح ابنتهم فإبها بصعة مى يريبنى ما
رابها ويؤدىنى ما اذاها»

وربما كان من وفاته لها غضبه لعصبها، فأحجم عن مباينة أبى بكر إلى ما بعد
وفاته على بعض الروايات، وهجره كما هجرته مدة حياتها. وقد ولدت له أشهر بنيه
وبناته الحسن، والحسين ومحسن، وأم كلثوم، وريب، وماتت ولم تلج الثلاثين

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف فى عددهم المؤرخون،
ويؤخذ من إحصائهم فى «الرياض النصرة» للمحب الطبرى أنه رضى الله عنه
واهر الحظ من الذرية، بقى منهم بعده كثيرون.

وكان على ما يفهم من خلائقه، ومن سيرته وأخباره، أب سمحا يستريح الأبناء
إلى عطفه، ويجترئون على مساجلته الرأى فى خطر ما يدويه من لأحداث الحسم

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق، ومعهما اسيدة عائشة رضى الله عنها،
جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له «قد أمرتك فعصيتنى، فتقتل عدا
بمعصية لا ناصر لك فيها» فسأله «وما الذى أمرتكى فعصيتك؟» قال «أمرتك
يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك
يوم قتل ألا تباع حتى تأتلك ونور العرب وبيعة أهل كل مصر بإبهم أن يقطعوا
أمرادوك فأبيت. ثم أمرتك حين هجر الرجال ما فعلا أن تحسن فى بيتك
حتى يصطلحا فإن كان انفساد كان على يدى غيرك، فعصيتنى فى ذلك كله».

للم يأف أن مساجله الرأى ليفعه، وجعل يقرر له «أى بنى» أما قولك لو خرجت
من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحبط بنا كم أحبط به، وأما قولك لا تباع
حتى تأتى بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكره أن يضيع هذا الأمر،

وأما فولك حين خرج طلحة والربيع فإن ذلك كان وهما على أهل الإسلام وأما فولك
أجلس في بيتك فكيف لي بما قد لرمي؟ ومن يريدني؟ أتريد أن أكون مثل نصيب
الذي يحاط بها ويقال: دباب دباب. سست هيا حتى يحرق عرقها ثم تخرج وإذا لم
انظر فيما لرمي من الأمر ويعيبي، فمن ينظر فيه؟ فكف عنك أي بني»

وهذه معاملة «أخوة» تستعرب في لأحيان امصاصة انبي كان للأبوة فيها
على البين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق، ولا يعصها أنه لطم
الحسن يوماً لأنه ظن به تقصيراً في الدفاع عن عثمان ففك سورة العصب في
موقف من أندر المواقف التي لا يفس عليها في سائر الأحوال.

وكان رضى الله عنه يرهه أن يحيط به أبناؤه في محاسن الروع ومشهد
الرخوف فيخرج إليها وهم حافون به عن يمينه وشماله، ومنهم من يحمل اللواء
بين يديه، وذلك زهو الشجاع الغرور بأشباه الشجعان.

واشتهر بالعطف على صغارهم، كما اشتهر بمودة كبارهم فكأن أحب شيء
إليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبهم، وكانت له طفلة ذكبة ولدتها له روضة من
بني كلب يخرج بها إلى المسجد ويسره أن يسألها أصحابه من أخوالك؟ فتجيب
«وه.. وه» محاكاة لعواء الكلاب

وكان يقول «إن للوالد على الولد حقاً، وإن للولد على الوالد حق» فحق الوالد
على الولد أن يطيعه في كل شيء إلا في معصية الله سبحانه، وحق الولد على
الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعمه القرآن»

ومن إحسان التسمية، أنه هم بتسمية ابنه حرب لأنه يرشحه للجهاد وهو
أشرف صباغاته، لولا أن رسو الله سماه لحسن، وهو أحسن فحري على هذا
الاختيار في تسمية أخويه الحسين والمحسن وأتم حق أبائهم في إحسان
أسمائهم، فاختر لهم أسماء النبي وأسلافه من الخلفاء أبي بكر، وعمر، وعثمان
أم معيشتهم في بيته بين زوجاته وأبنائه، فمعيشة الرهد والكفاف وحرماً يقال
فيها به كان يتفق له أن يطحن لنفسه، وأن يأكل الحبر اليابس الذي يكسره على ركبته،
وأن يلبس ارداء الذي يرعد فيه، وأن حدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب
الذي مات عنه وهو خليفة المسلمين. وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تنافس ملك
اندلس فكأن بيته بقبض القصر الذي تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه.

صورة مجملة

من كلمات الإمام التي لم يقلها أحد غيره كلمته في خطاب الدنيا حيث يقول:
«يادنيا غري غري.. غري غري».

وانها لأكثر من كلمة، وأكثر من دعاء..

إنها لسان قدر، وعنوان حياة..

فقد خلق الإمام، وفي كل خليفة من خلائقه الكبار اجترأ على الدنيا، على
ضرب من ضروب الاجترأ.

خلق شجاعاً بالغاً في الشجاعة، وزاهداً عظيم الزهد، ودارساً محباً للحقيقة
الدينية يتحرأها حيث امتدى إليها..

والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي الحياة..

والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي النعيم..

وطالب الحقيقة جرىء على الدنيا لأنها طريق عنده إلى غاية من ورائها..

فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة في زمن لم يعرف بطارئ من الطوارئ،
كما عرف بالإقبال على الدنيا؟..

صام الناس قبله عن الدنيا، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذافيرها..

هدأت حماسة الدعوة النبوية، وثابت الطبائع إلى مألوفها الذي أشرجت عليه،
وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحر لم تعهده الجزيرة العربية قط في
تاريخها

وأقبل الناس على الدنيا، بل هروا إليها إلى الدنيا..

وإذا بخليفة جرىء عليها زاهد فيها، يقف لهم في طريقها ويصدهم عنها..
يصد ماذا؟..

يصد الطوفان، وهو متدفع من وراء السدود..

يصد الطبيعة الإنسانية، وهى منطلقة من عقال التقوى..

يصد ما لا سبيل إلى صده بحال..

فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سرير.. فإن الإنسان قد يعيش عيشة الشهداء، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء..

وقد لزمته آية الشهادة فى كل قسمة كتبت له، وكل حركة سعى إليها أو سعت إليه..

فمن آيات الشهادة أن يساق إلى الخلافة، ولا حيلة له فى اجتنابها..

ومن آيات الشهادة أن يساق إليها فى ساعة الفصل بينها وبين الملك، وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان..

ومن آيات الشهادة أن يساق إليها، ولا حيلة له فى تحقيق أغراضها ولا فى الخروج من مآزقها..

ومن آيات الشهادة أن يبتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه، ولا حيلة فى تبديل أولئك الأنصار..

ومن آيات الشهادة ألا تغفر الدنيا، وقد غرت حوله كل إنسان.. فهو شهيد، شهيد، شهيد..

خرج إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام..

وصورته المجلدة لا تشق على مصور ولا على متفرس، لأنها صورة المجاهد فى سبيل الله بيده وقلبه وعقله، أو صورة الشهيد..

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله، ينبغى أن ينعزل عن محنة القدر التى لا يغلبيها غالب..

وقد كان له رأى عالم، وفطنة حكيم، ومشورة مدبر.. ولكننا إذا قلنا إنه أخفق فى العمل لأنه لم يغلّب القدر، فذلك تكليف بما لا يطاق.

وإنما نقول إنه أخفق فى العمل ونمسهك، ولعله لو تولى الخلافة قبلها أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الإخفاق..

* * *

وحق لا شك فيه أنه أخفق حيث يشرفه إخفاقه، وحيث يخفق الآخرون
لونصبتهم الأقدار في مثل مكانه.

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه، وهو إلى اليوم موضع الخلاف عليها
وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال في التاريخ.

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده، ولكنه لم يطلب إليه ذلك... ولا
رأى من الحكمة أن يطلبه إليه. قال ابن عباس ورسول الله في مرض الوفاة:
«أذهب إلى رسول الله، فسله فيمن يكون هذا الأمر.. فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن
كان في غيرنا أمر به فأوصى بنا؟» قال: «والله لئن سألتها رسول الله
فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا.. والله لا أسأله رسول الله أبدا»..

آمن الإمام بحكمة الرسول إيمان محبة وتصديق، ولكنه لم يفارق الدنيا حتى
كان قد آمن بها إيمان تعليم وتطبيق. فلما سأله: «أتبايع الحسن؟» قال: «لا أمركم
ولا أنهاكم» فأنصف الذين سبقوه ولم يفرضوا على الناس استخلافه، لأنهم رأوا
في موقفه منها مثل ما رأوه في موقف الحسن ابنه، على حكم سواء..

* * *

أى ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام..

لقد ولد كما علمنا في الكعبة، وضرب كما علمنا في المسجد.. فأية بداية
ونهاية أشبه بالحياة التي بينهما من تلك البداية وتلك النهاية!!

* * *

فهرس الكتاب

٣	تقديم
٧	١- صفاته
١٩	٢- مفتاح شخصيته
٢٣	٣- إسلامه
٢٩	٤- عصر الإمام
٣٩	٥- البيعة
٧١	٦- سياسته
٩٧	٧- حكومته
١٠٥	٨- النبي والإمام والصحابه
١١٣	٩- ثقافته
١٢٧	١٠- في بيته
١٣١	صورة مجملة